

## الفصل الثانى

### نظرية سوسير فى اللغة

لم يكن سوسير سعيداً بعلم اللغة عندما عرفه، لأنه اعتقد أن أسلافه قد أخفقوا فى التفكير جدياً أو على نحو سليم فيما كانوا يصنعون. وقد كتب يقول<sup>(١)</sup> إن علم اللغة «لم يحاول قط أن يحدد طبيعة الموضوع الذى كان يدرسه؛ وإن العلم لا يستطيع بدون هذه العملية الأولية أن يطور منهجاً ملائماً» (الدروس ٣، دروس ١٦) (\*).

وضرورة هذه العملية ماسة؛ لأن اللغة البشرية تمثل ظاهرة بالغة التعقيد والتنوع، بل إن أى فعل كلامى مفرد يتضمن قدراً غير عادى من العناصر، ومن ثم يمكن تأمله من وجهات نظر مختلفة بل متعارضة. إن فى وسع المرء أن يدرس الطريقة التى ينتج بها الفم والحبال الصوتية واللسان الأصوات؛ وفى وسعه كذلك أن يبحث فى الموجات الصوتية التى تنطلق، وفى الطريقة التى تؤثر بها فى آلية السمع؛ كما أن فى وسعه أن ينظر فى مقصد المتكلم الدال، وفى الجوانب التى تشير إليها عبارته من العالم، وفى الظروف المباشرة لسياق التواصل التى ربما تكون قد قادت إلى إنتاج سلسلة بعينها من الأصوات. وربما حاول المرء تحليل الأعراف التى تمكن المتكلم والمستمعين من أن يفهم بعضهم

---

(١) إننى استخدم عبارات مثل «كتب سوسير» تيسيراً للأمر فحسب، وإلا فإن أجزاء من الدروس قليلة للغاية، على نحو ما ذكرت فى الفصل الأول، هى التى كتبها سوسير حقاً.

(\* ) على مدار الكتاب ستكون الإشارة إلى عمل سوسير مزدوجة على هذا النحو، وفيها يقصد بكلمة الدروس Course ترجمة ويد باسكن Wade Baskin للدروس، التى صدرت طبعة منها فى نيويورك ١٩٧٦ بعد طبعة لندن ١٩٧٤، ويقصد بكلمة دروس Cours طبعة تيلو دى ماورو Tullio de Mauro الفرنسية النموذجية فى باريس ١٩٧٣، وأرقام الصفحات فى هذه الطبعة تفيد فى الرجوع إلى النصوص فى ترجمة روى هاريس Roy Harris الإنجليزية الصادرة فى لندن ١٩٨٣. وقد اكتفى المؤلف بالكلمة الأولى من العنوان فى الإشارة إلى هاتين الترجمتين اعتماداً على اختلاف حروف الهجاء بين الكلمتين الإنجليزية والفرنسية، والتماساً لفارق بينهما فى هذه الترجمة جعلنا الأولى معرفة والثانية منكرة، (الترجم).

بعضاً، مستنبطاً القواعد النحوية والدلالية التي لا بد أن يكونوا قد تمثلوها إذا كانوا قد تفاهموا بهذه الطريقة. ومرة أخرى ربما كان فى وسع المرء أن يتتبع تاريخ اللغة الذى اتاح ظهور هذه الأشكال المعينة فى هذا الوقت.

وهكذا يتعين على عالم اللغة، وقد واجهته هذه الظواهر جميعاً، وهذه المنظورات المختلفة التى يتناول المرء هذه الظواهر على أساسها - يتعين عليه أن يتساءل عن الشيء الذى يحاول وصفه: إلى أى شىء على وجه الخصوص ينظر المرء، أو عن أى شىء يبحث؟ وفى إيجاز، ما اللغة؟

إن إجابة سومير عن هذا السؤال لا غبار عليها، ولكنها بالغة الأهمية، حيث إنها صالحة للفت الانتباه إلى المسائل الجوهرية. فاللغة نظام من العلامات؛ ولا تعد الأصوات لغة إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها، وإلا فهى مجرد أصوات. ولكى تعبر الأصوات عن الأفكار أو تنقلها ينبغى لها أن تكون جزءاً من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار. وبعبارة أخرى، ينبغى لها أن تكون جزءاً من نظام من العلامات. والعلامة هى اتحاد بين شكل يدل، يسميه سومير الدال Signifiant، وفكرة يُدَلُّ عليها، تسمى المدلول Signifie. ومع أننا قد نتكلم عن الدال والمدلول، كما لو كانا عنصريين منفصلين، فإنهما لا يوجدان إلا بوصفهما مكونين للعلامة؛ فالعلامة هى الحقيقة الجوهرية للغة، ومن ثم فإننا حين نحاول الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوى أو عرضى، ينبغى لنا أن نبدأ بطبيعة العلامة ذاتها، وبخصائصها الأولية.

### الطبيعة الاعتباطية للعلامة:

يتعلق المبدأ الأول فى نظرية اللغة عند سومير بالخاصية الجوهرية للعلامة؛ فالعلامة اللغوية عنده اعتباطية، ذلك بأن أى اتحاد بعينه بين الدال والمدلول إنما يمثل وحدة اعتباطية، وفهم هذا المبدأ المبهم على وجهه الصحيح يعد أساساً لفهوم اللغة والمنهج اللغوى عنده.

لا أحد ينازع في المبدأ القائل بالطبيعة الاعتباطية للعلامة، ولكن أن تستكشف حقيقة ما غالباً ما يكون أيسر من أن تعين لها مكانها الصحيح. والمبدأ المذكور آنفاً يسيطر على التحليل اللغوي إجمالاً؛ والنتائج المترتبة عليه لا حصر لها، وإن كان من الصحيح أنها لا تتساوى على الفور في الوضوح؛ ثم إن المرء لا يستكشفها إلا بعد المرور بمنعرجات كثيرة، ومعها يستكشف الأهمية الجوهرية لهذا المبدأ، (الدروس ٦٨؛ دروس ١٠٠).

ماذا يعنى سومير بالطبيعة الاعتباطية للغة؟ والإجابة عن هذا سهلة نوعاً ما، إذ ليس هناك رابطة طبيعية أو إلزامية بين الدال والمدلول. وما دمت أنا أتكلم الإنجليزية فإننى قد استخدم الدال الذى تمثله كلمة *dog* (كلب) للكلام عن حيوان من نوع بعينه، ولكن هذا النسق من الأصوات لا يلائم هذا الغرض على نحو أفضل من نسق آخر، فمن الممكن أن تؤدى هذا الغرض بالدرجة نفسها كلمات مثل *Lod* أو *tet* أو *bloop* إذا ما تقبلها أفراد مجتمع الكلام الذى أنتمى إليه. وليس هناك سبب جوهرى يفسر لنا لماذا كان أحد هذه الدوال أحرى من غيره أن يرتبط بالصورة الذهنية للكلب (لاحظ اننى استخدم هنا، وعلى مدى صفحات الكتاب، الكتابة بالحروف المائلة لكى أدل بها على الصيغ اللغوية (مثل *dog* و *Lod*))، واستخدم علامات التنصيص لأدل على المعانى [مثل "dog"].

أليس لهذا القانون الأساسى استثناءات؟ من المؤكد أن هناك طريقتين يمكن بهما تبرير استخدام العلامات اللغوية، بمعنى أن تصبح أقل اعتباطية. فهناك أولاً حالات المحاكاة الصوتية *onomatopoeia*، حيث يبدو صوت الدال محاكياً على نحو ما أو مقلداً، كما هو الشأن فى الإنجليزية فى الصوت *wow - bow* أو *arf - arf* (قارن بهذا فى الفرنسية *ouâ - ouâ*، وفى الألمانية *wau - wau*، وفى الإيطالية *bau - bau*) (\*)، ولكن هذه الحالات قليلة. وكوننا نرى فيها نمطاً مستقلاً وحالة خاصة، ليس سوى تأكيد

(\* ) وقارن أيضاً فى العربية هدهد، وثرثر.. إلخ، (المترجم).

أقوى لحقيقة أن العلامات العادية اعتباطية.

ومع ذلك فإن العلامات في إطار لغة بعينها يمكن تبرير استخدامها على نحو خاص بطريقة مختلفة. فالآلة التي أكتب عليها تسمى الآلة الكاتبة **typewriter**، وليس هناك سبب جوهري يفسر لنا لماذا لا ينبغي تسميتها **grue** أو **blimmel** (\*)، ولكن يمكن تبرير كلمة **typewriter** في إطار اللغة الإنجليزية لان المعنيين الخاصين بالنسقين الصوتيين اللذين يكونان الدال فيها، وهما **type** و **writer** يرتبطان بمدلولها، أى بفكرة الـ «آلة الكاتبة» (**typewriter**). وفى وسعنا أن نسمى ذلك «تبريراً ثانوياً». ولنلاحظ - على سبيل المثال - أن العلاقة بين هذا النسق الصوتى والتصور الذهنى لم تنشأ إلا فى اللغة الإنجليزية؛ فإذا تعين على الفرنسيين استخدام الصيغة نفسها للكلام عن هذه الآلة، كانت عندئذ علامة اعتباطية على الإطلاق، مادام العنصر المكون الأولى، وهو كلمة **writer**، ليس علامة فى اللغة الفرنسية، أضف إلى هذا أن عملية الربط عند سوسير، على نحو ما سئرى بين **type** و **writer** لخلق علامة جديدة، تماثل - على نحو جوهري - الطريقة التى نربط بها بين الكلمات لكى نشكل عبارة (يكون معناها مرتبطاً بمعانى الالفاظ المفردة مجتمعة)، ومن ثم نستطيع أن نقول إن اللغات تتخذ من العلامات الاعتباطية عناصر أساسية. ثم إنها بعد ذلك تقوم بعمليات مختلفة للجمع بين هذه العلامات، ولكن هذا لا يغير من الطبيعة الجوهرية للغة ومكوناتها الأولى.

والعلامة اعتباطية بمعنى أنه ليس هناك حلقة اتصال جوهرية بين الدال والمدلول. وعلى هذا النحو كان من المعتاد تفسير مبدأ سوسير، ولكنه فى هذا الإطار يمثل فكرة تقليدية صرفاً أو حقيقة واضحة بعض الشيء عن اللغة. ولما كان تفسيره قد تم بهذه الطريقة المحدودة، فإنه لم تكن له تلك النتائج الخطيرة الشأن، التى ادعاها له سوسير مراراً وتكراراً، وفقاً لما هو ثابت فى مذكرات الطلبة: «إن المكان التراتبى لهذه الحقيقة هو

(\*) واضح أن هاتين الكلمتين من اختراع المؤلف، فلا وجود لهما فى المعجم، ولا أحد يعرفهما أو يستخدمهما، وهما هنا للتمثيل للفكرة التى شرحها سوسير، (المترجم).

القمة ذاتها، وشيئاً فشيئاً يدرك الإنسان كيف أن كثيراً من الوقائع المختلفة ليس سوى تفريعات أو نتائج خبيثة لهذه الحقيقة؛ (إنجلر، ص ١٥٣) (\*). وهناك أشياء تتعلق بالطبيعة الاعتبارية للعلامة أكثر من تلك التي تتعلق بالعلاقة الاعتبارية بين الدال والمدلول، ولذا ينبغي لنا أن نمضى قدماً.

ومن خلال ما قلته حتى الآن عن الدال والمدلول ربما مال المرء إلى التفكير في اللغة بوصفها سجلاً لأسماء الأشياء؛ أي سلسلة من الأسماء التي اختيرت اعتبارياً ثم الحقت بمجموعة من الأشياء أو التصورات الذهنية. ويقول موسير إنه من السهل للغاية التفكير في اللغة بوصفها سجلاً للأسماء، وجعل حكاية الإنجيل عن تسمية آدم لأنواع الحيوان وصفاً لطبيعة اللغة ذاتها. وإذا قال بعض الناس إن التصور الذهني لكلمة كلب dog قد أدته أو عبرت عنه كلمة dog في اللغة الإنجليزية، وكلمة chien في الفرنسية، وكلمة Hund في الألمانية، كان معنى هذا أن كل لغة لديها اسم اعتباري لتصور ذهني سابق في الوجود على أي لغة وعلى نحو مستقل عنها.

ولو أن اللغة كانت مجرد سجل للأسماء الخاصة بجملته من التصورات الذهنية الكونية، لكان من السهل القيام بالترجمة من لغة إلى أخرى؛ إذ إن المرء عندئذ سيستبدل في بساطة بالاسم الفرنسي للتصور الذهني الاسم الإنجليزي. ولو أن اللغة كانت على هذا النحو لأصبحت كذلك عملية تعلم لغة جديدة أيسر كثيراً مما هي عليه. ولكن أي إنسان حاول القيام بأي من هذين العملين (\*\*\*) قد انتهى - للأسف - إلى قدر هائل من الأدلة المباشرة على أن اللغات ليست سجلات للأسماء، وأن التصورات الذهنية أو المدلولات في إحدى اللغات قد تختلف اختلافاً جذرياً عنها في لغة أخرى. إن كلمة يحب aimer الفرنسية لا تنتقل بصورة مباشرة إلى الإنجليزية، إذ لا بد للمرء أن يختار بين to love و to like؛ وكلمة démarrer (الانطلاق) الفرنسية

(\* ) يشير المؤلف هنا إلى الطبعة المحققة للكتاب المنسوب إلى سومير، التي نشرها رودلف إنجلر Rudolf Engler في فيسبادن، وقامت أساساً على مذكرات الطلبة. (المترجم).

(\*\*\*) يقصد العملين المذكورين هنا، وهما الترجمة من لغة إلى لغة، وتعلم لغة جديدة (المترجم).

تتضمن في فكرة واحدة المدلولين الإنجليزيين: مدلول البدء starting، ومدلول التصاعد accelerating؛ والفعل يعرف to know في الإنجليزية يغطي مساحة مدلولين فرنسيين هما connaître و savoir؛ والتصوران الذهنيان للنذل wicked وللمدلل pet في اللغة الإنجليزية ليس لهما مقابل حقيقي في الفرنسية؛ ومرة أخرى فإن ما تسميه الإنجليزية «الازرق الحائل» Light blue والازرق الداكن، وتعامل معهما بوصفهما درجتين للون واحد، هما في روسيا لونان أوليان متميزان. وهكذا تشكل كل لغة العالم أو تنظمه على نحو مختلف. ثم إن اللغات لا تكتفي بمجرد تسمية صنوف الموجودات؛ إذ إنها تشكل تصنيفاتها الخاصة كذلك.

أضف إلى هذا أنه لو كانت اللغة مجموعة من الأسماء الموضوعة للتصورات الذهنية القائمة على نحو مستقل، إذن لوجب أن تظل هذه التصورات الذهنية ثابتة على مدى التطور التاريخي للغة ما. لكن الدوال قد تتطور، والنسق الخاص بالأصوات التي ارتبطت بتصوير ذهني معين يمكن أن يعدل، كما يمكن الربط بين نسق معين من الأصوات وتصوير ذهني مختلف. ويحدث عَرَضاً بطبيعة الحال أن يلزم وضع علامة لتصوير ذهني جديد أنتجته التغييرات التي تحدث في العالم، ولكن التصورات الذهنية ذاتها، بوصفها كينونات مستقلة عن اللغة، لن تكون خاضعة للتطور اللغوي. ومع ذلك فإن تاريخ اللغات في الحقيقة ملئ بالأمثلة على انتقال التصورات الذهنية، مغيرة بذلك حدودها. وعلى سبيل المثال فإن كلمة cattle الإنجليزية كانت في وقت ما تعني الملكية بصفة عامة؛ وشيئاً فشيئاً صارت مقصورة على الممتلكات من ذوات الأقدام الأربع (وهو صنف عام جديد)، ثم حصلت أخيراً على معناها الحديث الخاص بالابقار المستأنسة. ومرة أخرى فإن الشخص الأحمق Silly كان ذات يوم شخصاً سعيداً ومباركاً وورعاً؛ وشيئاً فشيئاً تغير هذا التصور الذهني الخاص؛ فالتصور الذهني القديم للحمق تحول؛ وكان الشخص الأحمق في أوائل القرن السادس عشر شخصاً بريئاً وعاجزاً، بل إنه يستحق الشفقة. وقد استمر التصور الذهني في التغير إلى أن أصبح الأحمق آخر الأمر شخصاً

ساذجاً، وسخيفاً، وربما كان غيبياً كذلك.

ولو أن اللغة كانت سجلاً للأسماء لكان لزاماً علينا أن نقول إن هناك عدداً من التصورات الذهنية المنفصلة، وأن الدال أحتمى silly قد نسب أولاً إلى واحد منها ثم إلى واحد آخر. ولكن من الواضح أن هذا لم يحدث؛ فالتصور الذهني المرتبط بالدال أحتمى silly، كان يغير حدوده على الدوام، ويغير شيئاً فشيئاً من صورته الدلالية، مشكلاً بذلك العالم بطرق تختلف من حقبة زمنية إلى الحقبة التي تليها. وقد تطور الدال كذلك عَرَضاً، خاضعاً في ذلك لتعديل في حرف العلة الأساسي به.

ما معنى هذا؟ وما علاقته بالطبيعة الاعتبارية للعلامة؟ إن اللغة ليست سجلاً للأسماء؛ ومن ثم فإن المدلولات فيها ليست تصورات ذهنية سابقة الوجود، ولكنها تصورات متغيرة وطارئة، تختلف من حالة من حالات اللغة إلى أخرى. ولما كانت العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية، ولما لم يكن هناك سبب ملح يجعل أحد التصورات الذهنية أولى من غيره بأن يلحق بدال بعينه، لم يكن هناك - لذلك - خاصية ملازمة ينبغي للتصور الذهني الاحتفاظ بها من أجل أن يعد مدلولاً لهذا الدال. ويستطيع المدلول المرتبط بدال أن يتخذ أى شكل؛ فليس هناك معنى صميم يتحتم عليه الاحتفاظ به من أجل أن يعد المدلول الملائم لهذا الدال. ومن هنا فإن الحقيقة القائلة: إن العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية تعنى أنه مادام قد انتفى أن يكون هناك تصورات كونية ثابتة، أو دوال كونية ثابتة، كان المدلول نفسه اعتبارياً، وكذلك كان الدال. ومن ثم ينبغي لنا أن نتساءل، مثلما صنع سوسير، عما يتحدد به الدال أو المدلول؛ وستقودنا الإجابة إلى مبدأ غاية في الأهمية، فحواه أن الدال والمدلول كليهما كينونتان قائمتان على التعالق (\*) أو التخالف (\*\*)، ولأنهما اعتباريتان فقد كانتا متعالتين؛ وهذا مبدأ يتطلب الشرح.

(\*) أى يتحدد معناهما من خلال علاقتهما بغيرهما وليس لهما معنى خاص بهما، (المترجم).

(\*\*) أى يختلفان ويتفاوتان وفقاً للظروف المتغيرة، (المترجم).

## طبيعة العناصر اللسانية:

ينسب موسير أهمية عظيمة - أعظم مما قد يبدو في الدروس المنشورة - إلى حقيقة أن اللغة ليست سجلاً للأسماء، لأننا مالم ندرك هذا لن نستطيع أن نفهم التفرعات الكاملة للطبيعة الاعتبارية للعلامة. فاللغة لا تعين في بساطة أسماء اعتبارية لمجموعة من التصورات الذهنية القائمة على نحو مستقل. إنها تقيم علاقة اعتبارية بين دوال من اختيارها الخاص من جهة، ومدلولات من اختيارها الخاص، من جهة أخرى. ولا يقتصر الأمر في كل لغة على إنتاج مجموعة مختلفة من الدوال، مشكلة بذلك الكيان المتجانس المستمر للصوت، ومقسمة له بطريقة متميزة، بل تنتج كل لغة مجموعة مختلفة من المدلولات، فهي تملك طريقة متميزة، ومن ثم «اعتبارية»، لتنظيم العالم في تصورات ذهنية ومقولات.

ومن الواضح أن النسقين الصوتيين في كلمتي *river* و *fleuve* هما دالان في اللغة الفرنسية وليس كذلك في اللغة الإنجليزية، في حين أن كلمتي *river* و *stream* إنجليزيتان وليستا فرنسيتين. على أن تنظيم المستوى التصوري - وإن كان ذلك أقل وضوحاً ولكن أكثر أهمية - هو كذلك مختلف في اللغتين الإنجليزية والفرنسية. فالدال *river* يتعارض مع الدال *stream* على أساس الحجم، في حين أن الدال *fleuve* يختلف عن الدال *river* لأنه أكبر بالضرورة بل لأنه يصب في البحر، على خلاف الدال *river*. وفي إيجاز أقول إن الدالين *fleuve* و *rivière* ليس لهما مدلولان أو تصوران في اللغة الإنجليزية؛ وإنهما يمثلان تشكيلاً مختلفاً للمستوى التصوري.

وتدلنا حقيقة أن هاتين اللغتين تؤديان عملهما على نحو بالغ الجودة عن طريق التشكيلات التصورية أو الفروق المختلفة - تدلنا على أن هذه الأقسام ليست طبيعية أو حتمية أو ضرورية، ولكنها - بمعنى ما مهم - اعتبارية. وما هو واضح الأهمية أن لكل لغة طرقاً للكلام عن المجازى التي يتدفق فيها الماء، ولكنها تستطيع أن تقيم فروقها التصورية في هذا المجال استناداً إلى واحد من عدد كبير من الطرق المختلفة (كالحجم،

وسرعة التدفق، والانتظام أو التعرج، واتجاه التدفق، والعمق، والصلاحية للملاحة... إلخ)، ولا يقتصر الأمر في اللغة على قدرتها على اختيار دوالها؛ ففي وسعها أن تميز جملة متنوعة من الإمكانيات التصورية بأى طريقة شاءت.

وإضافة إلى ذلك - ونحن نصل هنا إلى مسألة مهمة - تعنى حقيقة أن هذه التصورات أو هذه المدلولات أقسام اعتبارية في كيان متصل ومستمر، أنها ليست كينونات مستقلة يحدد كل منها بماهية من نوع ما، ولكنها أفراد في نظام تحددها علاقاتها بالأفراد الآخرين في هذا النظام. إنني إذا أردت أن أشرح لشخص ما معنى كلمة *stream* (جدول الماء) كان لزاماً علي أن أشرح الاختلاف بين الجدول والنهر *river* وبين الجدول والنهير *rivulet*، وهكذا، وعلى غرار هذا لا أستطيع أن أشرح التصور الفرنسي لكلمة *revière* دون أن أصور الفرق بين *revière* و *fleuve* من جهة، و *ruisseau* من جهة أخرى.

وتعد الكلمات الخاصة باللون مثلاً جيداً لخاصية العلامة هذه. فلنفترض أننا نريد أن نعلم شخصاً أجنبياً الألوان في اللغة الإنجليزية، ولنفترض كذلك أن هذا الطالب بعينه بطيء في التعلم بعض الشيء، وأنه ينتمى إلى ثقافة مختلفة، الأمر الذي يحتم علينا أن نستخدم خطة تعليمية فعالة. وربما تراءى لنا أن أفضل طريقة للتقدم في العمل هي أن نأخذ في مرة واحدة لوناً واحداً، كان نبداً - مثلاً - باللون البنّي، والانتقل منه إلى لون آخر حتى نتأكد من أننا تمكنا من اللون البنّي. وعلى هذا فإننا نبداً بأن نعرض عليه أشياء بنية اللون، ونخبره بأنها بنية. ولأننا نريد أن نكون دقيقين فإننا نكون قد جمعنا مجموعة من مائة شيء بني اللون من أنواع مختلفة، وبعد أن نكون قد أضجرنا وأضجرنا أنفسنا على مدى عدة ساعات، نأخذها إلى حجرة أخرى، ونطلب إليه - لكي نختبر معرفته باللون البنّي، أن يلتقط كل ما هناك من أشياء بنية اللون. وإنه ليشرع في العمل، ولكن يبدو أنه يواجه صعوبة في تقرير ما يختاره. ومن ثم فإننا نقرر في ياس أننا لم نكن دقيقين على نحو كاف، وننتهي إلى البدء مرة أخرى في اليوم التالي بعرض

خمسمائة من الأشياء البنية اللون .

ولحسن الحظ أن معظمنا لن يتبنى هذا الحل الميئوس منه، وأنه سيعرف الخطأ الذي وقع . ذلك بأن تلميذنا - مهما يكن من كثرة الأشياء البنية التي قد نعرضها عليه - لن يعرف معنى البنى، ولن يكون قادراً على النجاح فيما اختبرناه فيه، حتى نعلمه التمييز بين البنى والأحمر، والبنى والأسفع(\*)، والبنى والرمادى، والبنى والأصفر، والبنى والأسود . وهو لن يشرع فى فهم معنى البنى إلا عندما يدرك العلاقة بين البنى والألوان الأخرى . والسبب فى هذا هو أن «البنى» ليس تصوراً مستقلاً تعينه بعض الخصائص الأساسية، ولكنه مفردة فى نظام من مفردات الألوان، تعينها العلاقات بينها وبين المفردات الأخرى التي تحدها .

والواقع أن هذه الخبرة التعليمية المزعجة ستنتهى بنا إلى فهم كيف أننا - نتيجة لكون العلامة اعتباطية، ولكونها نتيجة تقسيم كيان متصل بطرق خاصة باللغة التي تنتمى إليها هذه العلامة - لن نستطيع تناول العلامة بوصفها كياناً مستقلاً، بل يتحتم علينا أن ننظر فيها على أنها جزء من نظام . والأمر لا يقتضى - تدقيقاً - فهم الأحمر والأصفر والرمادى والأسود وغيرها من أجل معرفة معنى البنى؛ والأصح أن يقال: إن مدلولات مفردات الألوان ليست سوى الناتج أو النتيجة لنظام من التفرقات . وإذا تقسم كل لغة ألوان الطيف وتفرق بين المقولات التي تسميها ألواناً، فإنها تنتج نظاماً مختلفاً من المدلولات، يتمثل فى العناصر التي تعتمد قيمتها على العلاقات بين بعضها وبعض . ويقول موسير معماً المسألة :

إننا إذن نستكشف فى كل الأحوال لا الأفكار التي تطرح مسبقاً، بل القيم الصادرة عن النظام . وعندما نقول إن هذه القيم تتطابق مع التصورات فإن هذا معناه أن هذه التصورات تخالفية صرف ، لا تحدد بصورة إيجابية عن

(\*) الأسفع هو البنى المشرب باصفرار . ( المترجم ) .

طريق محتواها، بل تحدّد سلبياً عن طريق علاقاتها بمفردات أخرى في النظام. وأدق خاصية لها هي أنها تمثل مالا يمثله غيرها.

(الدروس ١١٧، دروس ١٦٢).

فالبنى هو ما ليس أحمر أو أسود أو رمادياً أو أصفر... إلخ. والشئ نفسه يصح بالنسبة إلى كل مدلول من المدلولات الأخرى.

وهذه نتيجة رئيسية وإن كانت مناقضة للطبيعة الاعباطية للعلامة؛ وسوف نعود إليها بعد قليل، ولكن ربما كانت أيسر طريقة لإدراك هذه الفكرة الخاصة بالطبيعة التعاقبية الصرف للوحدات اللغوية هي تناولها من زاوية أخرى.

ولننظر في مشكلة التماثل في العلوم اللغوية، أي المشكلة التي تنشأ عندما يعد ملفوظان أو جزءان من ملفوظ مثالين لعنصر لغوي مفرد. لنفترض أن شخصاً ما أخبرني قائلاً: «لقد اشتريت سريراً اليوم»، وأنتى أجبتة قائلاً: «وما نوع هذا السرير؟»، فماذا نقصد عندما نقول إن العلامة نفسها قد استخدمت مرتين في هذه المحادثة؟ وما الأساس الذي نستطيع بناء عليه أن ندعى أن مثالين أو شاهدين على العنصر اللغوي نفسه قد ظهرا في حوارنا؟ لاحظ أنتى صادرت على المطلوب عندما دونت قدراً من ضجيج الأصوات كوّن منه كلانا كلمة سرير. والحق أن الأصوات الفعلية التي أطلقت لآبد أنها كانت مختلفة بعض الشيء، أعنى مختلفة من وجهة نظر مادية وصوتية صرف. إن الأصوات تختلف، ونحن نستطيع بعد سماع بضع كلمات قليلة للغاية عن طريق التليفون أن نتعرف صوت أحد الأصدقاء لأن الإشارات المادية الفعلية التي أرسلها تختلف عن إشارات معارفنا الآخرين.

لقد أحدث كلانا، مخاطبى وأنا، ضجيجاً، ومع ذلك فقد أردنا بهذا أن نقول إننا أحدثنا الدال نفسه، أى استخدمنا العلامة نفسها؛ فليس الدال إذن هو الشئ نفسه المتمثل في الأصوات التي أحدثها هو أو أحدثتها أنا. إنه عنصر تجريدى من نوع ما، لا ينبغي أن يختلط مع النسق الفعلى للأصوات. ولكن أى نوع هو من العناصر؟ ومن

أى شىء يتكون؟ ويمكننا أن نعرض لهذا السؤال بالسؤال عن مدى إمكانية أن تختلف الأصوات الحادثة وأن تعد مع ذلك صياغات للدال نفسه. وهذا يماثل بطبيعة الحال السؤال الذى طرحناه ضمناً عن المدلول، ألا وهو: إلى أى مدى يمكن للون ما أن يتغير ويعد مع ذلك بنياً؟ والإجابة فيما يخص الدال تماثل كثيراً الإجابة فيما يخص المدلول. ويمكن للأصوات الحادثة أن تختلف اختلافاً ملحوظاً (ليست هناك خاصية أساسية ينبغي لها أن تمتلكها)، مادامت لا تصل إلى حد الاختلاط بتلك الأصوات الخاصة بالدوال المتعارضة. إن لدينا حرية لا بأس بها فى طريقة تلفظنا بكلمة سرير **bed**، مادام ما نقوله لا يختلط بكلمات مثل **bad**، و **bud**، و **bid**، و **bode**، ومثل **bread**، و **bled**، و **dead**، و **fed**، و **head**، و **led**، و **red**، و **said**، و **wed**، ومثل **beck**، و **bet**، و **bell**.

وبعبارة أخرى أقول إن وجوه الاختلاف هى المهمة؛ وإنه لهذا السبب كانت للعناصر حقيقة تعالقية صرف. وليس من السهل الإحاطة بهذا المبدأ، ولكن سوسير يقدم إلينا صورة تمثيلية له؛ فنحن على استعداد للتسليم أساساً بصحة أن القطار السريع المغادر من جنيف إلى باريس فى تمام الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة (٤٥ : ٨) هو القطار نفسه فى كل يوم، على الرغم من أن العربات تتغير يوماً بعد يوم، وكذلك القاطرة والأشخاص. وما يمنح القطار حقيقته هو موقعه من نظام القطارات، على نحو ما يبين الجدول الزمنى. ولنلاحظ أن هذه الحقيقة التعالقية هى على وجه التأكيد العامل المحدد؛ فالقطار يظل هو القطار نفسه حتى وإن تأخرت مغادرته نصف ساعة. والواقع أنه قد يتأخر دائماً فى مغادرته دون أن يكف عن كونه قطار الثامنة وخمس وأربعين دقيقة السريع، المغادر من جنيف إلى باريس. والمهم هو التمييز بينه وبين القطار السريع المغادر من جنيف إلى باريس فى تمام العاشرة وخمس وعشرين دقيقة (٢٥ : ١٠) مثلاً، أو القطار المحلى المغادر جنيف إلى ديجون فى تمام الساعة الثامنة وأربعين دقيقة، وهكذا دواليك.

والتناظر الآخر الذى يستخدمه سوسير لتصوير فكرة الحقيقة التعااقية يتمثل فى المقارنة بين اللغة والشطرنج؛ فمن الواضح أن العناصر الأساسية فى الشطرنج هى الملك والملكة والرخ والفارس والأسقف والبيدق(\*)، ولا أهمية للشكل المادى الفعلى لهذه القطع، ولا للمادة التى صنعت منها؛ فقد يكون الملك فى أى حجم وأى شكل، مادامت هناك طرق لتمييزه عن سائر القطع؛ ولا حاجة بالرخين إلى أن يكونا من حجم واحد وشكل واحد، مادام من الممكن تمييزهما عن سائر القطع. وعلى هذا فإنه إذا ما فقدت قطعة من الشطرنج فإننا - كما يقول سوسير - نستطيع أن نستعير عنها باى نوع آخر من الأشياء، شريطة ألا يختلط هذا الشيء قط بالأشياء المثلثة للقطع ذوات القيم المختلفة (الدروس ١١٠، دروس ١٥٣ - ٥٤). وهكذا فإن الخصائص المادية الفعلية للقطع لا أهمية لها، مادامت هناك فروق من نوع ما - وأى فرق منها يكفى - بين القطع ذوات القيم المختلفة.

وعلى هذا يستطيع المرء أن يقول إن عناصر لعبة الشطرنج ليس لها هوية مادية؛ فليست هناك صفات مادية لازمة للملك أو البيدق؛ ولكن الهوية قاطبة هى وظيفة للفروق التى يشتمل عليها نظام ما. فإذا نحن طبقنا المثل على اللغة فسوف نكون فى وضع نفهم فيه دعوى سوسير المتعارضة، القائلة إنه فى نظام اللغة «ليس هناك سوى اختلافات ولا وجود معها لالفاظ ثابتة الدلالة» (الدروس ١٢٠، دروس ١٦٦). والمعتاد أننا عندما نفكر فى الفروق فإننا نفترض أن هناك شيئين يختلفان؛ ولكن ما يريده سوسير هو أن الدال والمدلول ليسا شيئين بهذا المعنى؛ فكما أننا لن نستطيع أن نقول أى شىء عن الشكل الذى ينبغى أن يكون للبيدق، سوى أنه يختلف عن الفارس والرخ إلخ، كذلك فإن الدال الذى نمثله فى كلمة سرير لا يتحدد باى أصوات معينة

(\*) أسماء هذه الوحدات الشائعة لدينا اليوم هى على الترتيب نفسه: الملك، الوزير، الطاوية، الفرس، الفيل، العسكرى. (المترجم).

استخدمت في التلفظ به. والامر لا يقتصر على اختلاف الأصوات الفعلية من حالة إلى أخرى، ولكن من الممكن تنظيم اللغة الإنجليزية بحيث تكون الأصوات المستخدمة في التعبير عن الدال **bet** قد استخدمت للدال **bed**، والعكس صحيح. فإذا حدثت هذه التغيرات كان التعبير عن عناصر اللغة مختلفاً، ولكنها ستكون مع ذلك هي العناصر نفسها بصفة أساسية (فالفروق نفسها تبقى، على مستوى الدال، ومستوى المدلول على السواء)، وستبقى اللغة هي اللغة الإنجليزية. والواقع أن اللغة الإنجليزية ستبقى أساساً هي اللغة نفسها إذا لم يتم التعبير قط عن عناصر الدال صوتياً، واقتصر التعبير عنها على نوع ما من الرموز المرئية.

ومن الواضح أنني حين أقول هذا فإنني أقوم بالتمييز بين عناصر النظام اللغوي وتجلياتها أو تحققاتها المادية الفعلية. وقبل مناقشة هذه التفرقة البالغة الأهمية في تفصيل أكبر، قد يكون من المفيد أن أجمل خطوات التفكير المنطقي الذي أدى إليها؛ فقد بدأنا بملاحظة أنه ليست هناك رابطة طبيعية بين الدال والمدلول؛ ثم رأينا ونحن نحاول شرح الطبيعة الاعتبارية للعلامة اللغوية، أن الدال والمدلول كليهما يمثلان قسمين أو حدين اعتباطيين في كيان متصل ومستمر (مجال صوتي من جهة، وحقل من التصورات من جهة أخرى)؛ وقد أدى بنا هذا إلى استنباط أن الدال والمدلول كليهما ينبغي تحديدهما على أساس علاقتهما بالدوال والمدلولات الأخرى؛ ومن ثم انتهينا إلى النتيجة القائلة إننا إذا أردنا تحديد عناصر اللغة وجب علينا أن نفرق بين هذه العناصر التعالقية والتجريدية الصرف وتحققاتها المادية؛ والأصوات الفعلية التي نحدثها في عملية الكلام ليست في ذاتها عناصر في النظام اللغوي، كما أن اللون الطبيعي الذي نعنيه عندما نقول عن كتاب ما إنه «بنى» ليس هو الشيء نفسه المتمثل في العنصر اللغوي «بنى» (مدلولاً أو مفهوماً). وفي كلا الحالين - وكان سوسير على حق في تأكيد هذه المسألة - يكون العنصر اللغوي صيغة form أكثر منه مادة substance، وتكون العلاقات التي

أفردته عن العناصر الأخرى هي المحددة له .

## اللسان والكلام:

لقد وصلنا هنا في تفريقنا بين النظام اللغوي وتجلياته الفعلية إلى التعارض الحاسم بين اللسان *langue* والكلام *parole*. واللسان هو نظام لغة ما، أى اللغة بوصفها نظاماً من الصيغ، فى حين أن الكلام هو الحديث الفعلى، أى الأفعال الكلامية التى تسمح بها اللغة. واللسان هو ما يتمثله الأفراد عندما يتعلمون لغة ما، أى أنه جملة من الصيغ أو « ذخيرة رسبتها الممارسة الكلامية لدى متكلمين ينتمون إلى الجماعة نفسها، ونظام نحوى قائم فى عقل كل متكلم لتلبية كل المقاصد والأغراض » (الدروس ١٣ - ١٤، دروس ٣٠). إن الناتج الاجتماعى هو الذى يسمح وجوده للفرد بممارسة قدرته اللغوية (إنجلر ٣١)، أما الكلام - فى الجانب الآخر - فهو جانب الإنجاز العملى للغة؛ وهو يتضمن عند سوسير التاليفات التى يستخدم المتكلم عن طريقها شفرة النظام اللغوى لكى يعبر عن أفكاره الخاصة، وه الآليات المادية النفسية التى تسمح له بتجسيد هذه التاليفات » (الدروس ١٤، دروس ٣١). وفى فعل الكلام يختار المتكلم عناصر من النظام اللغوى، ويجمع بينها، ويمنح هذه الصيغ مظهراً صوتياً عيانياً ونفسياً بوصفها أصواتاً ومعانى.

وإذا بدت هذه الملاحظات المتعلقة بالكلام مربكة بعض الشيء فلأنها تشتمل على مشكلة سنعود إليها. فإذا كان التاليف بين العناصر اللغوية ينتمى إلى الكلام، كان للقواعد النحوية syntactic rules إذن وضع ملتبس. ذلك بأن جعل اللسان نظاماً من الصيغ، والكلام عملية تأليف بين هذه الصيغ وتجسيد لها، لا يماثل على وجه الدقة جعل اللسان هو الملكة اللغوية، وجعل الكلام هو التدريب الذى تقوم به هذه الملكة؛ لأن الملكة اللغوية تشتمل على معرفة بكيفية التاليف بين العناصر، أى قواعد هذا التاليف. وهذه التفرقة الأخيرة بين اللسان بوصفه نظاماً والكلام بوصفه تحققاً هى أكثر جوهرية من

غيرها من التفرقات عند موسير وفي التراث السوسيرى على السواء. ومع ذلك فليس تحديد الخصائص الخاصة بالكلام أساسياً هنا، مادامت الوظيفة الرئيسية والاستراتيجية للتمييز بين اللسان والكلام - كما يوضح موسير - هي عزل موضوع البحث اللغوى. لقد ذهب موسير إلى أن اللسان ينبغى أن يكون فى موضع الاهتمام الأول لدى عالم اللغة؛ وما يحاوله المرء عند تحليله للغة ما ليس هو وصف الأحداث الكلامية، بل تحديد العناصر وقواعد التأليف بينها، التى تشكل النظام اللغوى. إن اللسان أو النظام اللغوى يمثل موضوعاً متلاحماً قابلاً للتحليل؛ «فهو نظام من العلامات يكون الشيء الوحيد المهم فيه هو اتحاد المعانى والصور الصوتية» (الدروس ١٥، دروس ٣٢). وعندما يدرس المرء اللغة بوصفها نظاماً من العلامات فإنه يحاول أن يحدد ملامحها الرئيسية، أى تلك العناصر التى تعد حاسمة بالنسبة إلى الوظيفة الدالة للغة، أو - بعبارة أخرى - العناصر الفاعلة داخل النظام من حيث إنها تخلق العلامات عن طريق التمييز بين الواحدة منها والآخرى.

على هذا النحو يمدنا التمييز بين اللسان والكلام بمبدأ وثيق الصلة بالدراسات اللغوية. وقد كتب موسير يقول: «عندما نفصل بين اللسان والكلام فإننا نفصل ما هو جماعى عما هو فردى، وما هو جوهرى عما هو إضافى أو عَرَضى (الدروس ١٤، دروس ٣٠). وإذا نحن حاولنا دراسة شيء يتعلق بظاهرة الكلام فإننا سندخل عندئذ منطقة مشوشة يصعب فيها للغاية تحديد ما له صلة بالموضوع وما لا صلة له. ولكننا إذا ركزنا الدراسة على اللسان فسوف تبرز فى داخله أو حوله جوانب مختلفة من اللغة والكلام. وإذا نحن مضينا مع هذه الفكرة عن النظام اللغوى استطعنا أن نسأل عما إذا كانت كل ظاهرة تنتمى إلى هذا النظام نفسه، أو كانت مجرد صورة لاداء العناصر اللغوية أو تحققها؛ وعندئذ ننجح فى تصنيف الحقائق الكلامية فى مجموعات يمكن دراستها فيها دراسة مفيدة.

وعلى سبيل المثال، يفضى التمييز بين اللسان والكلام إلى خلق نوعين متباينين من النظم لدراسة الصوت ووظائفه اللغوية، هما علم الأصوات اللغوية Phonetics، الذى يدرس الصوت فى الأحداث الكلامية من الوجهة المادية؛ وعلم الصوت Phonology، الذى لا يهتم بالوقائع المادية ذاتها، بل بالفروق بين وحدات الدال المجردة، التى تعمل فى حدود النظام اللغوى. (ومن المهم هنا ملاحظة أنه على الرغم من أن سوسير يقرر بصورة غير حاسمة أن الأصوات المادية ذاتها ليست جزءاً من اللسان، ممهداً بهذا الطريق للتمييز بين علم الأصوات اللغوية وعلم الصوت على نحو ما سبق تعريفهما، فإنه يستخدم هو نفسه هذين المصطلحين بمعنى مختلف للغاية. وسوف استمر فى استخدامهما بالمعنى الحديث الذى سبق تحديده).

ويرتد بنا التمييز بين علم الأصوات اللغوية وعلم الصوت إلى النقاط التى سبقت الإشارة إليها، المتعلقة بحقيقة الصيغة bed؛ فعلم الأصوات قد يصف الأصوات الفعلية الصادرة عندما ينطق المرء بهذه الصيغة، ولكن حقيقة الصيغة bed، كما بينا من قبل، لا تعتمد - بوصفها عنصراً مفرداً فى اللغة الإنجليزية - على طبيعة هذه الأصوات الفعلية، بل على الفروق التى تفصل بين bed و bet و bad و head، إلخ. وعلم الصوت هو دراسة هذه الفروق الوظيفية؛ وكلمة «الوظيفية» هى ما ينبغى تأكيده هنا. وعلى سبيل المثال هناك اختلاف محسوس وملحوظ فى الملفوظات الإنجليزية بين «الصوت L» الذى يأتى قبل الحروف المتحركة (كما هو الشأن فى كلمة Lend وكلمة alive)، والذى يأتى قبل الحروف الساكنة أو فى نهاية الكلمات (كما هو الشأن فى كلمة melt أو كلمة Peel). فالاختلاف هنا اختلاف صوتى (فونوطيقى) حقيقى، ولكنه اختلاف لا يستخدم قط للتمييز بين علامتين. إنه ليس اختلافاً وظيفياً، ومن ثم فإنه ليس جزءاً من النظام الصوتى (الفونولوجى) للغة الإنجليزية. ومن جهة أخرى يستخدم الاختلاف بين الأصوات المتحركة فى كلمة feel وكلمة fill فى اللغة الإنجليزية للتمييز بين العلامات (قارن بين Keel و Kill، وبين Keen و Kin، وبين Seat و Sit، وبين heat و hit، وما

أشبهه). وهذا التعارض يقوم بدور غاية فى الأهمية فى النظام الصوتى (الفونولوجى) للغة الإنجليزية، حيث يخلق عددا كبيرا من العلاقات التمايزة.

كذلك فإن التمييز نفسه بين ما ينتمى إلى أحداث لغوية بعينها وما ينتمى إلى النظام اللغوى نفسه يكون تمييزا مهما فى مستويات أخرى كذلك، وليس فى مستوى الصوت على وجه التحديد. ففى وسعنا أن نميز - على سبيل المثال - بين الملفوظ بوصفه عنصرا كلاميا، والجملة بوصفها عنصرا لسانيا. وقد يكون ملفوظان مختلفان تجليين للجملة نفسها. ولهذا فإننا نواجه مرة أخرى الفكرة المحورية الخاصة بالتماثل فى علم اللغة. إن الأصوات الفعلية والمعانى السياقية للملفوظين ستختلف؛ وما يجعل الملفوظين مثلين لعنصر لغوى مفرد هو الفروق التى تمنح هذا العنصر حقيقة تعالقية.

وعلى سبيل المثال لو أن كثبيرت Cuthbert قال ذات مرة «أنا متعب»، فإن أنا تشير إلى كثبيرت؛ وفهم هذه الإشارة يعد جزءاً مهماً فى فهم العبارة. ومع ذلك فإن هذه الإشارة ليست جزءاً من معنى الجملة؛ لأن جورج قد ينطق كذلك بالجملة نفسها، وفى نطقه بها ستشير أنا إلى جورج. وفى إطار النظام اللغوى لا تشير أنا إلى أحد؛ فمعناها فى النظام هو نتيجة لوجوه الاختلاف بين أنا وأنت، وهو وهى، ونحن وهم؛ وهو معنى يمكننا أن نوجزه فى قولنا إن أنا تعنى «المتكلم» فى مقابل أى شخص آخر.

والضمان تصور فى وضوح الفارق بين المعانى التى تخص الملفوظات وحدها، والمعانى التى تخص عناصر فى النظام اللغوى. وقد استخدم سوسير فى تشخيص هذا الفارق مصطلحى الدلالة Signification و «القيمة» Valeur؛ فالعناصر اللغوية لها قيمة داخل النظام، أى معنى يكون نتيجة للتعاضات التى تحددها؛ ولكن عندما تستخدم هذه العناصر فى عبارة ما تصبح ذات دلالة، أى تصبح تحقفاً أو تجليا سياقيا للمعنى. وعلى سبيل المثال إذا قال متحدث فرنسى "J'ai vu un mouton" وقال متحدث إنجليزى "I saw a sheep" فالمحتمل أن يكون لعبارتيهما الدلالة نفسها، فهما يقرران شيئاً واحداً يتعلق بواقع الأمر (وهو على وجه التصريح أن المتكلم رأى خروفاً فى وقت مضى). ومع

ذلك فإن كلمتي mouton و sheep بوصفهما عنصريين في نظاميهما اللغويين الخاصين ليس لهما معنى واحد أو قيمة واحدة؛ لأن كلمة "sheep" (\*) تحدد عن طريق تعارضها مع "mutton" (\*\*)، في حين أن كلمة "mouton"، لا ترتبط بأى تفرقة من هذا النوع، ولكنها تستخدم للدلالة على الحيوان وعلى اللحم كليهما. وهنا تلوح بعض المشكلات الفلسفية التي لم يعرض لها سوسير؛ فربما رغب الفلاسفة على وجه الخصوص في أن يقولوا إن ما يسميه سوسير دلالة لعبارة ما، يشتمل على المعنى والمرجع كليهما. ولكن المسألة التي تعنى سوسير هي أن هناك نوعا من المعنى، هو المعنى التعالقي أو القيمة التعالقية، يقوم على أساس النظام اللغوي، ونوعا آخر من المعنى أو الدلالة، يشتمل على استخدام العناصر اللغوية في مواقف التلفظ الفعلية.

وللتفريق بين اللسان والكلام نتائج مهمة في أنظمة معرفية أخرى إلى جانب علم اللغة؛ لأن هذا التفريق هو في جوهره تفريق بين المؤسسة والواقعة؛ أي بين النظام الأساسي الذي يسمح بقيام أنماط مختلفة من السلوك، والأمثلة الفعلية لهذا السلوك. وتؤدي دراسة النظام إلى بناء النماذج التي تمثل الصيغ، وإلى علاقتها بعضها ببعض، وإمكانات التأليف بينها؛ في حين أن دراسة السلوك الفعلي أو الأحداث الفعلية قد تؤدي إلى بناء النماذج الإحصائية التي تمثل احتمالات قيام تألفات بعينها في ظل ظروف متغيرة.

وسوف نرى في مناقشتنا لعلم العلامات (السيميوطيقا) في الفصل الرابع كيف امتدت فكرة اللسان إلى حقول أخرى. ومع ذلك فإن دراسة اللسان في إطار علم اللغة نفسه يتضمن قائمة بالفوارق التي تخلق العلامات، وبقواعد التأليف، في حين أن دراسة الكلام قد تفضي إلى شرح للاستخدام اللغوي، متضمنا التكرار النسبي لاستخدام صيغ معينة، أو توالييف من الصيغ التي ترد في الكلام الفعلي. وقد قدم سوسير لعلم اللغة

(\*) أى الحروف أو النعجة. (المترجم).

(\*\*) أى لحم الضأن. (المترجم).

موضوعاً مناسباً للدراسة عن طريق فصله بين اللسان والكلام، وقدم - من ثم - معنى أشد ما يكون وضوحاً لما كان هذا العلم يقوم به؛ فلو أن الإنسان ركز على اللغة بما هي نظام لَعرف ما كان يجتهد في إعادة تشييده، ولأمكنه أن يحدد - من خلال هذا المنظور - الشاهد الملائم وكيف ينبغي تنظيمه.

وسوف نتناول بنية النظام اللغوي بمزيد من التفصيل، ولكن تظل هناك مسألة تتعلق بمفهوم اللسان ينبغي التركيز عليها هنا. ذلك أن القائمين على نشر عمل سوسير قاموا بتنظيم الدروس بحيث صارت تبدأ بالتمييز بين اللسان والكلام. وعلى هذا بدأ سوسير في الصورة كما لو كان يقول إن اللغة كتلة مختلطة من حقائق متباينة المصادر، وأن الطريق الوحيد لجعلها شيئاً معقولاً هو فرض شيء يسمى النظام اللغوي، وطرح أى شيء آخر جانبا. ومن هنا بدأ ذلك التمييز لدى كثير من الناس قابلاً للمراجعة إلى حد بعيد؛ فهو فرض ينبغي للمرء قبوله دون مباحكة إذا هو أراد أن يمضى قدماً. ولكن التمييز بين اللسان والكلام في الحقيقة، كما تبين ملاحظات سوسير، وكما لا بد أن يكون سياق المناقشة الذى تبنيه هنا قد أوضح - هو نتيجة منطقية لطبيعة العلامة الاعتباطية ولمشكلة التماثل في علم اللغة. وفي إيجاز أقول إن العلامة إذا كانت إذن اعتباطية فإنها، على نحو ما رأينا، تكون بمثابة كينونة تعاقبية صرف، وإنما إذا أردنا أن نعرف العلامات ونعيّنها وجب علينا أن ننظر إلى نظام العلاقات والفوارق التى ننشئها. ومن ثم ينبغي لنا أن نميز بين المواد المختلفة التي تتجلى فيها العلامات، والصيغ الفعلية التي تشكل العلامات؛ فنحن عندما نقوم بهذا يكون ما عزلناه نظاماً من الصيغ يشكل أساس السلوك أو التجلى اللغوي الفعلي. ونظام الصيغ هذا هو اللسان، وإن محاولة دراسة العلامات لتتقودنا - لا محالة - إلى النظر إلى هذا النظام على أنه الموضوع الصحيح للدراسة اللغوية. وليس عزل اللسان - كما قد يتراءى في الدروس المنشورة - نقطة انطلاق اعتباطية، ولكنه نتيجة لطبيعة العلامات ذاتها.

### المنظوران الوصفي والتاريخي:

هناك نتيجة أخرى مهمة للطبيعة الاعتباطية للعلامة، عاجلها نقاد سوسير كذلك

بوصفها إلزاما هو موضع شك ولا ضرورة له، المقصود به هو التمييز بين الدراسة الوصفية Synchronic للغة (دراسة النظام اللغوي في وضع بعينه، دون الإشارة إلى الزمن)، والدراسة التاريخية diachronic (دراسة تطورها عبر الزمن). لقد ذهب البعض إلى أن صوسير في تمييزه الصارم بين هذين المنظورين، وفي منحه الدراسة الوصفية للغة الأولوية، كان يتجاهل، أو - على الأقل - يطرح جانبا، حقيقة أن اللغة في أساسها تاريخية وعارضة(\*)؛ أى أنها كينونة في تطور متصل. ولكن على النقيض من هذا كان إدراكه الأعمق من إدراك نقاده للتاريخانية الجذرية للغة هو على وجه التحديد السبب في أنه أكد أهمية التمييز بين الحقائق المتعلقة بالنظام اللغوي والحقائق المتعلقة بالتطور اللغوي، حتى في تلك الحالات التي يبدو فيها هذان النوعان من الحقائق متداخلين. وهنا يلوح ضرب من التناقض يتطلب الإيضاح.

ما الرابط في اللغة بين الطبيعة الاعتبارية للعلامة والطبيعة التاريخية في أساسها؟ وفي وسعنا أن نقول هذا بطريقة أخرى: فلو كان هناك نوع ما من الارتباط الجوهرى أو الطبيعي بين الدال والمدلول، لكانت العلامة عندئذ مشتملة في صميمها على مركز لا يتأثر بمضى الزمن، أو يقاوم التغيير على أقل تقدير، ولأمكن وضع هذا الجوهر الذى لايعتريه التغيير في الجانب المقابل لتلك الملامح «العارضة»، التى تتغير يقينا من حقبة زمنية إلى أخرى. لكن الواقع أنه - كما رأينا من قبل - ليس هناك جانب من العلامة يعد خاصية ضرورية لها، ويقع - من ثم - خارج الزمن. إن أى جانب صوتى أو معنى يمكن أن يتغير؛ وتاريخ اللغات ملئ بتغيرات تطويرية جذرية في جانبى الصوت والمعنى كليهما. إن كلمة Ping التى كانت تعني في اللغة الإنجليزية القديمة «الناقشة» - discussion، صارت مع مضى الزمن هى كلمة الشئ thing فى الإنجليزية الحديثة، بمعنى مختلف كل الاختلاف؛ وكلمة (theriakos) اليونانية، التى تعنى «ماله تعلق بحيوان مفترس» صارت إلى كلمة «دبس السكر» treacle الإنجليزية الحديثة. وكذلك الكلمة

(\*) أى أنها طارئة على الحياة، شأنها شأن الأحداث التاريخية وكل ما هو تاريخى (الترجم).

اللاتينية «ساخن» Calidum صارت هي الكلمة الفرنسية الحديثة chaud (وتنطق مفتوحة مثل كلمة show الإنجليزية)، حيث يبقى المعنى هو هو، ولكن دون الاحتفاظ بأى عنصر صوتى أصلى. وفى إيجاز أقول: لا يحتوى الدال ولا المدلول على أى موضع مركزى أساسى لا يستطيع الزمن أن يمسه. ولأن العلامة اعتباطية فإنها تخضع للتاريخ خضوعا كليا، ويصبح الجمع فى لحظة بعينها بين دال بعينه ومدلول نتيجة عارضة للعملية التاريخية.

إن الحقيقة الماثلة فى أن العلامة اعتباطية، أو أنها عرضية برمتها، تجعلها خاضعة للتاريخ، ولكنها تعنى كذلك أن العلامات تتطلب التحليل بمعزل عن التاريخ. وليس هذا متناقضا كما قد يلوح؛ فلما لم يكن للعلامة جوهر لازم يتحتم استمراره، وجب تعريفها بأنها كينونة تعالقية، فى علاقاتها بالعلامات الأخرى. والعلاقات المناسبة هى تلك العلاقات التى تتاح فى زمن بعينه. ويقول سوسير إن اللغة «منظومة من القيم الصرف، التى لا يحددها شىء سوى علاقاتها التى يتكرر تعديدها من وقت إلى آخر» (الدروس ٨٠، دروس ١١٦). ولأن اللغة برمتها كينونة تاريخية معرضة دائماً للتغيير، فقد وجب على المرء أن يركز على العلاقات التى تتمثل فى حالة تزامنية بعينها، إذا كان عليه أن يحدد عناصرها.

وإذ يؤكد سوسير أولوية الوصف التزامنى Synchronic description فإنه يبرز عدم ملاءمة الحقائق التاريخية أو التعاقبية diachronic لتحليل اللسان. وسيتضح من خلال بعض الأمثلة السبب فى عدم ملاءمة المعلومة التاريخية. ففي اللغة الإنجليزية الحديثة يستخدم ضمير المفرد المخاطب أنت You للإشارة إلى شخص واحد وإلى كثيرين على السواء، كما أن هذا الضمير من الممكن أن يكون الفاعل أو المفعول فى الجملة. ومع ذلك ففي مرحلة أقدم من حياة اللغة كانت كلمة You تُحدد من خلال تعارضها مع كلمة Ye من جهة (حيث كانت Ye ضميرا فاعلا وكلمة You ضميرا مفعولا به)، وتعارضها مع كلمة thee وكلمة thou من جهة أخرى (حيث كانت thee و thou

صيغتان للمفرد، وكانت You صيغة للجمع). وفي مرحلة متأخرة صارت You تستخدم كذلك بوصفها أسلوباً مهذباً في مخاطبة شخص مفرد، شأنها شأن كلمة vous في الفرنسية. وفي اللغة الإنجليزية الحديثة اليوم لم تعد كلمة You تحدد من خلال تعارضها مع Ye و thee و thou. وفي وسع المرء أن يعرف الإنجليزية الحديثة، ويتقن الكلام بها دون أن يعرف أن كلمة You كانت في زمن ما صيغة للجمع والمفعول به. والمؤكد أن المرء إذا عرف هذا فلن يكون هناك مجال لأن تفيد هذه المعرفة جانباً من معرفته بالإنجليزية الحديثة. وسيبقى وصف كلمة You في الإنجليزية الحديثة هو الوصف نفسه على وجه الدقة لو أن تطورها التاريخي كان يختلف كل الاختلاف؛ لأن كلمة You في الإنجليزية الحديثة يحددها دورها في الوضع التزامني للغة.

وعلى نحو مماثل نجد الاسم الفرنسي Pas (بمعنى «خطوة») والظرف النكرة pas (بمعنى «لا») يشتقان تاريخياً من علامة واحدة؛ ولكن هذا لا أهمية له في وصف اللغة الفرنسية الحديثة، حيث تؤدي الكلمتان وظيفتهما بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف، وينبغي تناولهما بوصفهما علامتين متميزتين. ولا أهمية في الفرنسية الحديثة لما إذا كانت هاتان العلامتان ذات يوم علامة واحدة، كما هو الأمر في الواقع، أو ما إذا كانتا ذات يوم علامتين متميزتين كل التمايز، صار الدال المختلف فيهما متماثلاً عبر التغيرات الصوتية (حدث هذا - على سبيل المثال - مع كلمة Skate الإنجليزية، حيث جمعت التغيرات الصوتية بين سمك الورنك fish skate، المأخوذة من كلمة skata في اللغة الإسكندنافية القديمة، والتزلج على الجليد ice skate، المأخوذة من كلمة schaats في اللغة الهولندية). وإن محاولة دمج هذه الحقائق التاريخية في شرح للنظام اللغوي المعاصر ستكون تشويهاً وتزييفاً.

إن إصرار سوسير على ما بين المنظورات الوصفية والتاريخية من اختلاف، وعلى أولوية الوصف التزامني، لا يعني - مع ذلك - أنه خدع نفسه بالتفكير في أن اللغة تقوم

بوصفها سلسلة من الأوضاع المتزامنة المتجانسة تجانسا كلياً، كالإنجليزية في عام ١٩٢٠، والإنجليزية في عام ١٩٤٠، والإنجليزية في عام ١٩٦٠. وبمعنى ما تبدو فكرة الوضع التزامنى خيالا(\*) منهجياً. ذلك بأننا عندما نتحدث عن النظام اللغوى فى الفرنسية فى زمن محدد، فإننا نقوم باستخلاصه من الحقيقة الواقعة التى تشتمل على عدد بالغ الضخامة من المتكلمين المواطنين، الذين قد تختلف نظمهم اللغوية على أنحاء متعددة. ومع ذلك فالنظام اللغوى للفرنسية حقيقة واقعة محددة، من حيث إن كل هؤلاء المتكلمين يفهم بعضهم بعضاً، فى حين أن شخصاً ما لا يتحدث إلا الإنجليزية لا يمكن أن يفهمهم. ولما كنا نرغب فى أن تمثل لهذه الحقيقة، وأن نتكلم عن النظام الذى يشترك فيه هؤلاء المتكلمون المواطنون، فإننا نتقدم ببيانات تتعلق بالنظام اللغوى فى وضع تزامنى بعينه.

أضف إلى هذا أنه إذا كانت فكرة الوضع المتزامن خيالا منهجياً فإنه من المهم أن نتذكر أن بياناتنا المتعلقة بالتطور التاريخى للغة هى كذلك خيالية بالقدر نفسه. ولنفترض أننى أرغب فى أن ادعى ادعاءً تاريخياً فحواه أن الصوت / a / فى الفرنسية القرن العشرين قد أصبح / a / (وأنا أتبع هنا العرف الخاص فى وضع الصيغ الصوتية بين خطين مائلين)، فما معنى هذا؟ إن قولنا إن / a / قد أصبح / a / يفترض حدوث تحول لموضوع ما مع مضى الزمن، لكن الواقع أن هذا خيال تاريخى يلخص قدراً كبيراً من الحقائق المتزامنة(\*\*)، القائلة إنه فى مرحلة مبكرة من القرن كان هناك متكلمون كثيرون يميزون بين حرفى a، كما هو الشأن فى كلمة (عجين) Pâte وكلمة (قائم) Patte، أو كلمة (عمل محدد) tâche وكلمة (عييب) tache، فى حين أنه ليس هناك الآن سوى عدد محدود من المتكلمين الذين يميزون بينهما، حتى ليتمكن القول إن الأمر

(\*) المقصود بالخيالى فى هذا السياق وفيما يلى هذا هو الشيء الافتراضى. (المترجم).

(\*\*) أى أن ما يظن أنه منظور تاريخى إنما يعتمد فى حقيقته على رصد سابق للحقائق اللغوية المتزامنة - كما سيتضح فيما بعد. (المترجم).

سيؤول بهما إلى a واحدة في اللغة. وطبيعي أن هذا القول نفسه قد يكون إفراطا في التبسيط مخللا، حيث إن بعض المتكلمين سيسمعون التفرقة ولكنهم هم أنفسهم لن يستخدموها، في حين أن آخرين لن يستخدموها إلا في المناسبات الرسمية نسبيا.

ووفقاً لما يبينه هذا المثل، يربط العرض التاريخي عنصرا مفردا يعزى إلى حالة من حالات النظام اللغوي بعنصر يعزى إلى حالة متأخرة من هذا النظام. ومع الأخذ بالطبيعة التعالقية للعناصر اللغوية، أى بحقيقة أن العلاقات الماثلة في حالة النظام، الخاصة بهذه العناصر، هي التي تحدد هذه العناصر تحديدا تاما، يصبح القيام بهذا موضعا للشك، وغريبا عن مبدأ علم اللغة التزامنى (الوصفى). كيف يمكن تسويغ هذا؟ كيف يمكن للمرء أن يفترض حقيقة تاريخية؟

يذهب سوسير إلى أن الروايات التاريخية تشتق - على الرغم من اختلاف وضعها - من الروايات التزامنية (الوصفية). وهو يتساءل: ما الذى يسمح لنا بتقرير حقيقة أن كلمة mare اللاتينية صارت إلى mer (البحر) فى الفرنسية؟ ربما ذهب عالم اللغة التاريخي إلى أننا نعرف « أن mare صارت mer لأن الحرف الأخير هنا e، كما هو فى غير هذا الموضع، قد أسقط وتحول الحرف a إلى e. ولكن سوسير يذهب إلى أن افتراض أن تكون هذه التغيرات الصوتية المنتظمة هي التي تنشئ حلقة الوصل بين الصيغتين معناه عكس الأمور؛ لأن ما يمكننا من تحديد هذا التغيير الصوتى هو معرفتنا الأصلية بأن صيغة ما قد صارت صيغة أخرى. «إننا نقوم باستخدام التوافق بين كلمة mare وكلمة mer لنقرر أن الحرف a قد تحول إلى الحرف e، وأن حرف e الأخير قد سقط» (الدروس ١٨٢، دروس ٢٤٩).

والواقع أن ما نفترضه فى ربطنا بين كلمتى mare و mer هو هذا: أن mare، و mer، وما يتوسطهما من الصيغ، تشكل سلسلة متصلة الحلقات من صور التماثل المتزامنة. وفى كل حقبة يمكننا عن طريق استعادتها أن نقول إن تغييرا قد وقع فيها، تكون هناك صيغة قديمة وصيغة جديدة، وتكونان مختلفتين من الناحية الفونيطيقية، ولكنهما

تكونان متماثلتين من الناحية الفونولوجية أو الوظيفية. وطبيعي أنهما ربما كانت لهما تداعيات مختلفة (على سبيل المثال ربما بدت إحدى الصيغ من طراز عتيق بعض الشيء)، ولكن من الممكن أن يستخدمهما المتكلمون بطريقة تبادلية (\*). ولا شك في أن بعض المتكلمين قد يلزمون الصيغة القديمة وأن آخرين منهم يفضلون الصيغة الجديدة؛ ولكن لما كانت الحركة من واحدة منهما إلى الأخرى لن تحدث اختلافا في المعنى الفعلي، فسوف يكون هناك من منظور النظام تماثل تزامني بين الصيغتين. وهذا هو معنى أن التماثل التاريخي يعتمد على سلسلة من التماثلات التزامنية.

وبناء على ما يقوله سوسير فيما يتعلق بمثال آخر، «يعني التماثل التاريخي بين كلمتين مختلفتين كما تختلف كلمة *calidum* عن كلمة *chaud* (ساخن) - يعني في بساطة أن المرء قد انتقل من الكلمة السابقة إلى الكلمة التالية لها عبر سلسلة من التماثلات التزامنية» (الدروس ١٨٢، دروس ٢٥٠). في مرحلة ما كانت كلمتا *calid-um* و *calidu* تتبادلان المكان في الاستعمال، وكانتا متماثلتين من الناحية التزامنية، ثم صارتا فيما بعد *calidu* و *caldu*، ثم *caldu* و *cald*، ثم *cald* و *cald*، ثم *tsalt* و *tsaut*، ثم *tsaut* و *saut*، ثم *saut* أخيراً *sot* (وهو نطق كلمة *chaud*). وعندما نتكلم عن تحولات كلمة ما ونفترض تماثلاً تاريخياً فإننا نلخص في الحقيقة سلسلة مخصصة من التماثلات التزامنية. ويمضى سوسير فيقول: «وهذا هو السبب في أنني قلت إن معرفة السبب في أن كلمة «سادتي ١» تحتفظ بتماثلها عندما تتكرر عدة مرات في أثناء محاضرة ما، لها من الأهمية ما لمعرفة السبب في أن كلمة *chaud* تماثل كلمة *calidum*. والواقع أن المشكلة الثانية ليست إلا امتداداً وتعقيداً للمشكلة الأولى». (الدروس ١٨٢، دروس ٢٥٠).

وعلى هذا لا يستطيع المرء أن يدعى أن علم اللغة التاريخي أقرب على نحو ما إلى حقيقة اللغة، في حين يكون التحليل التزامني عملاً خيالياً؛ فالقرايات التاريخية مشتقة

(\*) أي أنهم يستخدمون الصيغة القديمة أحياناً والصيغة الجديدة أحياناً. (المترجم).

من التماثلات التزامنية؛ هذا فضلا عن أنها حقائق تنتمي إلى نظام مختلف . ومن الناحية التزامنية، تعد التماثلات التاريخية تشويها؛ لأن العلامات لا قدم والأحدث، التي ترتبط بها هذه التماثلات، لا تجمع بينها خصائص مشتركة . وليس لأى علامة من الخصائص سوى الخصائص التعاقبية الخاصة التي تحددها فى إطار نظامها التزامنى الخاص . ومن منظور نظم العلامات الذى هو آخر الأمر المنظور الذى يحظى بالاهتمام عند تناول العلامات، تتباين العلامات الأقدم والعلامات الأحدث تباينا كليا .

ومن هنا كانت أهمية الفصل بين المنظورات التزامنية (الوصفية) والمنظورات التاريخية، حتى عندما تتداخل الحقائق التي تعالجها هذه المنظورات، تداخلا لا فكاك منه . وهذه مسألة ينبغي للمرء أن يؤكددها؛ لأن علماء اللغة الذين يعارضون تمييز سوسير الجذرى بين أساليب التناول التزامنية وأساليب التناول التاريخية، ويرغبون فى تصور منظور تاريخى عام ومركب، غالبا ما يشيرون إلى تشابك الحقائق التزامنية والتاريخية كما لو كان هذا التشابك يدعم قضيتهم . وقد كان سوسير على وعى تام بالتداخل بين الحقائق التزامنية والحقائق التاريخية؛ فالواقع أن المشكلة برمتها عنده كانت هى مشكلة الفصل بين هذه العناصر عندما تختلط، لأن التحليل اللغوى لا يمكن أن يظفر بتماسكه إلا بهذه الطريقة . إن فى الصيغ اللغوية جوانب تزامنية وجوانب تاريخية ينبغي الفصل بينها، لأنها حقائق تختلف فى نظامها كما تختلف فى شروط وجودها .

ويذهب سوسير إلى أن المركب التاريخى العام محال، نتيجة للطبيعة الاعباطية للعلامات اللغوية . وربما استطاع المرء فى أنواع أخرى من النظم أن يجمع بين المنظورات التزامنية والمنظورات التاريخية: « فلما كانت القيمة كامنة فى الأشياء نفسها وفى علاقاتها الطبيعية، كان فى وسع المرء - إلى حد ما - أن يقتفى أثر هذه القيمة عبر الزمن، متذكرا أنها تعتمد فى كل لحظة على نظام من القيم يشاركها الوجود » . (الدروس ٨٠، دروس ١١٦) . ومن هنا سوف تعتمد قيمة قطعة من الأرض فى لحظة بعينها على عدد آخر ضخم من العوامل المؤثرة فى النظام الاقتصادى، ولكن القيمة

مستقرة على نحو ما في طبيعة الأرض ذاتها، ولن تشمل التنوعات على مجرد استبدال قيمة اعتباطية بأخرى. ولكن في حالة اللغة، حيث لا يكون لقيمة العلامة أى أساس طبيعي أو حدود ملازمة، يكون للتغيير التاريخي طابع مختلف. ويقول سوسير إن عناصر لغة ما «تخضع لتطورها التاريخي الخاص على نحو مجهول نهائيا في المجالات التي ترتبط فيها الصيغ أدنى درجات الارتباط الطبيعي بالمعنى» (إنجلر، ١٦٩). ولما لم يكن أى دال أكثر ملاءمة من الناحية الطبيعية للمدلول من أى دال آخر، فإن التغيير الجوهري يقع مستقلا عن نظام القيم: «فالحقيقة التاريخية واقعة لها منطقتها؛ أما النتائج التزامنية الخاصة التي قد تنشأ عنها فهي غريبة عنها كل الغرابة» (الدروس ٨٤، دروس ١٢١).

وحجة سوسير هنا حجة مركبة. والدعوى تقول إن الحقائق التاريخية لها نظام يختلف عن نظام الحقائق التزامنية من حيث إن التغيير التاريخي ينشأ خارج النظام اللغوي. والتغيير إنما ينشأ في الأداء اللغوي، أى في الكلام وليس في اللسان؛ والشئ الذي يعتبره التعديل هو العناصر المفردة في النظام الذي تتحقق فيه. ثم إن التغييرات التاريخية تؤثر في النظام آخر الأمر، حيث يتكيف النظام معها، ويفيد من نتائج التغيير التاريخي، ولكن ليس النظام اللغوي هو ما يحدث هذه التغييرات.

والشئ الذي يعارضه سوسير هنا هو فكرة الغائية في علم اللغة؛ وهي الفكرة التي تقول إن هناك غاية ما تعمل التغييرات اللغوية في الاتجاه نحوها، كما أنها تحدث من أجل تحقيق هذه الغاية. ولا تحدث التغييرات من أجل أن تنتج وضعاً جديداً للنظام؛ وما يحدث هو أن «عناصر بعينها تتغير، بغض النظر عن تماسكها داخل النظام في مجمله»<sup>(١)</sup>.

(١) هناك استثناء يناقشه سوسير في استفاضة ولكنني أتركه جانبا هنا، هو الظاهرة المعروفة باسم «القياس» analogy، التي تنشأ فيها صيغ جديدة قياسا على صيغ قائمة. وهذا عامل مهم في التغيير اللغوي، ولكن سوسير يذهب إلى أن هذه الظاهرة تزامنية بصفة أساسية. ولمزيد من المناقشة يرجع إلى الفصل الثالث ص ٨٠ - ٨١.

وهذه التغييرات المنفصلة لها نتائج عامة بالنسبة إلى النظام، حيث تتغير شبكة علاقاته. ومع ذلك « فليس الأمر أن نظاماً ما قد أنتج نظاماً آخر، بل أن عنصراً ما من النظام الأول قد تغير، وأن هذا كان كافياً لأن يُخرج إلى الوجود نظاماً آخر (الدروس ٨٥، دروس ١٢١). إن التغييرات جزء من عملية تطورية مستقلة، يتكيف النظام معها.

وتتضمن الحقيقة التاريخية استبدال صيغة بأخرى؛ وهذا الاستبدال ليس له في ذاته أى دلالة؛ فهو من منظور النظام اللغوى غير وظيفى. أما الحقيقة التزامنية فهى علاقة أو تعارض بين صيغتين قائمتين فى وقت واحد؛ وهى علاقة لها دلالتها، من حيث إنها تحمل المعنى خلال اللغة. وكلما كانت للتغيير اللغوى أصداً فى النظام، نشأ موقف يمتزج فيه هذان النوعان من الحقائق، ويكون من السهل اختلاط الأمر فيهما. ولكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً، وينبغى الفصل بينهما. ولكى ندرك الفرق وماله من أهمية، لننظر فى بعض الأسماء فى اللغة الإنجليزية، التى تجمع فى صيغ للجمع غير عادية، مثل feet (أقدام)، و geese (إوز)، و teeth (أسنان)؛ فما جوانب التطور التزامنية والتاريخية فى هذه الصيغ؟.

فى اللغة الانجلوسكسونية القديمة يبدو أن صيغ المفرد والجمع لهذه الأسماء كانت على النحو الآتى:

#### المرحلة الأولى

المفرد	الجمع	
fót	fóti	(تنطق مثل foat أو foati تقريباً)
gós	gósi	
top	tópi	(حيث th = b)

ثم تأثرت صيغ الجمع بتغير صوتى (فونوطيقى) يعرف بـ «تغير حرف الـ i».

(i mutation)؛ فعندما جاء حرف الـ i تاليا لمقطع منبور، تأثر الحرف المتحرك في المقطع المنبور، وأصبح للحروف المتحركة الخلفية الصدارة، حتى إن ó صارت é. وقد نتج عن ذلك:

### المرحلة الثانية

المفرد	الجمع	
foot	féti	
goose	gési	
tooth	tépi	

ثم في مرحلة صوتية (فونوطيقية) ثانية سقط حرف النهاية i، ونتج عن هذا:

### المرحلة الثالثة

المفرد	الجمع	
foot	fét	
goose	gós	
tooth	tép	

هذه الصيغ صارت، عن طريق النقلة الكبرى للحرف المتحرك في اللغة الإنجليزية التي صار فيها الحرف ó إلى لآ، وصار الحرف é إلى í - صارت عندئذ هي الصيغ الحديثة (الدروس ٨٣؛ دروس ١٢٠).

في المرحلة الأولى كان الجمع مميزا بوجود الحرف i في آخره. وهذه حقيقة تزامنية، بمعنى أن التعارض بين حضور الحرف i وغيابه قد ميز التعارض بين المفرد والجمع. ثم جاءت مرحلة صوتية (فونيطيقية) لا علاقة لها بصيغ الجمع أو بنحو اللغة في الحقيقة

على وجه الإطلاق، صاحبها تغيير فى تلك الصيغ التى تنتهى بالحرف i. وهذا التغيير لاعلاقة له بصيغ الجمع (أى لا علاقة بالتعارض التزامنى بين المفرد والجمع)، حيث إنه كان يحدث كلما جاء الحرف i تالياً لمقطع منبور - حتى وإن حدث ذلك فى الأفعال، على سبيل المثال. ولكن لما كان هذا التغيير قد حدث فقد تأثر به عدد ما من صيغ الجمع، محدثاً فى المرحلة الثانية حقيقة تزامنية جديدة. ونتيجة لحادثة لا علاقة لها بصيغ الجمع فى ذاتها، صارت جملة من صيغ الجمع مميزة بتعارض مزدوج: تعارض بين حضور الحرف i فى آخر الكلمة وغيابه، كما هو الشأن من قبل؛ وتعارض بين الحرف e فى الجمع والحرف o فى المفرد. ثم مع سقوط الحرف i الأخير، الذى لم يكن له كذلك أى تعلق بصيغ الجمع فى ذاتها، أصبح هناك وضع تزامنى جديد. لقد تغير شكل صيغ الجمع خلال حادث تاريخى؛ ولكن لما كان هناك اختلاف ما يزال قائماً بين صيغ المفرد وصيغ الجمع (الحرف o فى مقابل الحرف e)، كان النظام اللغوى قادراً على استخدام هذا الفارق بوصفه تعارضاً حاملاً للمعنى.

وقد كتب سوسير يقول: «إن هذه الملاحظة تعيننا على فهم أشمل لطبيعة وضع لغوى يخضع للمصادفة.. فالوضع الذى نتج عن التغيير لم يكن قد قصد به أن يومية إلى المعانى التى أسبغت عليه. لقد صار هناك وضع لعبت فيه المصادفة (ظهرت فيه الصيغتان fot: fet)؛ وقد استغله المتكلمون بجعله دالاً على التمييز بين المفرد والجمع. ولم تكن الصيغتان fot: fit أكثر ملاءمة لهذا الغرض من الصيغتين fot: fot؛ فالعقل فى كلا الوضعين ينفث الحياة فى المادة المتاحة (الدروس ٨٥؛ دروس ١٢١-١٢٢)، ومن منظور النظام اللغوى تكون الحقائق الدالة هى الحقائق التزامنية. وقد تطرح الأحداث التاريخية صيغاً جديدة تصبح فيما بعد جزءاً من نظام جديد؛ ولكن المرء - وفقاً لما يقوله سوسير - «فى المنظور التاريخى يتناول الظواهر غير المتصلة بالنظم، وإن كانت تتحكم فيها». (الدروس ٨٥، دروس ١٢٢).

لقد كان سوسير يلح على ضرورة التمييز بين المنظورات التزامنية والمنظورات

التاريخية في كل الأحوال، ولكن مناقشته لم تعرض إلا للتغيرات الصوتية. وبطبيعة الحال كان للأمثلة التي ناقشها نتائج صرفية ونحوية داخل النظام؛ وربما كان لهذه التعديلات آخر الأمر نتائج دلالية، ولكنه لم يتناول قط مشكلة التغير الدلالي ذاتها، أي التغيرات التاريخية للمدلولات. وهو يسلم، في هذه المناسبة، بأن المرء بمجرد أن يترك مستوى الصوت يصبح الاحتفاظ بالتمييز المطلق بين التزامني والتاريخي أكثر صعوبة (الدروس ١٤١؛ دروس ١٩٤)؛ ولكن النظرية تحمل المرء على أن يصنع هذا؛ وفي وسع المرء أن يستكشف حالة مقبولة ظاهريا وإن كانت غير دارجة، لامتداد عملية التمييز إلى علم الدلالة.

وهذا الجدال يماثل كثيرا ذلك الجدال الذي يتعلق بتغيرات الصوت. لنفترض أن شخصا ما تجرد لدراسة تغير معنى كلمة *kunst* (فن) في اللغة الجرمانية القديمة الوسطى بين سنة ١٢٠٠ سنة ١٣٠٠ تقريبا؛ فما الذي سيكون هنا تزامنيا وما الذي سيكون تاريخيا؟ لكي يحدد المرء تغير المعنى فإنه يحتاج إلى معنيين، وهذان المعنيان لا يمكن تقريرهما إلا من خلال النظر في الحقائق التزامنية؛ كالعلاقات بين المدلولات في وضع بعينه من أوضاع اللغة، التي تحدد المجال الدلالي لكلمة "*kunst*". ففي مرحلة مبكرة كانت هذه الكلمة تدل على معرفة أو كفاءة تتسم بدرجة عالية من التهذيب، في مقابل المهارات الأدنى والأكثر ارتباطا بالحرفية (الحرف)، كما تدل على الإنجاز الجزئي في مقابل الحكمة "*wisheit*" العامة. وفي مرحلة تالية كان التعارضان الأساسيان اللذان حددا معنى هذه الكلمة مختلفين؛ فكان الدينوي في مقابل الروحي ("*wisheit*")، والتقني ("*wizzen*") في مقابل غير التقني. ومعنى هذا أن ما لدينا هو تنظيمان مختلفان لحقل دلالي. وسوف يقوم العرض التاريخي على أساس هذه المعلومة التزامنية. ولكن إذا أريد للعرض التاريخي أن يشرح ما حدث لكلمة "*kunst*"، كان عليه أن يرجع إلى عوامل أو أسباب غير لغوية (كالتغيرات الاجتماعية، والعمليات النفسية، إلخ)، حدث أن كان لها أصداء في النظام الدلالي.

أما فيما يتعلق بتحليل اللغة فإن الحقائق الملائمة لهذا هي التعارضات التزامنية. ذلك بأن المنظور التاريخي يتناول علاقات قرابة فردية لا يمكن تعيينها إلا في ضوء نتائج التحليل التزامني، كما أنه يعتمد على ما أسماه استيفن أولمان Ullmann Stephen «التنوع والتعقيد اللانهائيان في الأسباب التي تحكم التغير الدلالي»، من أجل شرح الانتقال من حالة إلى أخرى. ولكن معرفة المعاني السابقة والأسباب الخاصة للتغير لن تكون ملائمة لشرح العلاقات الدلالية لحالة تزامنية (إلا في حدود أن تكون المعاني السابقة ما تزال ماثلة في النظام، فينظر إليها في هذه الحالة على أساس تزامني، لا على أساس تاريخي).

هنا، وكما هو الشأن في الحالات التي نظر فيها موسير، تتبع الحقائق التاريخية نظاماً order يختلف عن النظام التزامني، حيث تعتمد على عناصر فردية أكثر من اعتمادها على النظام system، الذي يستطيع وحده أن يعين تلك العناصر بوصفها عناصر لغوية. إن التاريخ، أو التطور التاريخي للعناصر المفردة، يدفع بصيغ يستخدمها النظام؛ وإن دراسة هذه الاستخدامات المنتظمة هي المهمة الأساسية. أما الشرح التاريخي أو السببي فليس هو الشيء المطلوب؛ لأنه يعتمد على عناصر لغة ما، وليس على اللغة، كما أنه يعتمد عليها من حيث هي عناصر فحسب. والشرح في علم اللغة عمل بنوي؛ فالمرء يشرح الصيغ وقواعد النظم عن طريق عرضه لنظام العلاقات الأساسي في وضع تزامني بعينه، تلك العلاقات التي تنشئ عناصر هذا النظام التزامني وتحدها.

### تحليل اللسان:

تشير النتيجةتان الأساسيتان لطبيعة العلامة الاعباطية كالتأما، اللتان توصلنا إليهما حتى الآن، إلى حقيقة واحدة، يمكن أن تعد مركز نظرية اللغة عند موسير، ألا وهي أن اللغة صيغة وليست مادة. فاللغة، أية لغة، هي نظام من القيم التي تتبادل العلاقات فيما بينها؛ وإن تحليل اللغة هو الكشف عن نظام القيم التي تشكل وضع اللغة. وفي الجانب المواجه لعناصر الأحداث الشفاهية، الصوتية والدلالية المحض، أو للكلام، يظهر اللسان

بوصفه نظاماً من التقابلات والاختلافات؛ ومهمة المحلل هي استكشاف هذه الاختلافات الوظيفية.

إن المشكلة الأساسية، كما أتراءى من متابعتنا لإلحاح سوسير عليها، هي مشكلة؛ المماثلة اللغوية. ذلك بأن علم اللغة ليس فيه شيء مفترض أو مسلم به؛ فليست هناك عناصر ثابتة مكتفية بذاتها، يكون البدء بها. ولكي نمائل بين حالتين للعنصر اللغوي نفسه ينبغي لنا أن نشيد كينونة شكلية وتعالقية عن طريق التمييز بين الاختلافات غير الوظيفية (التي هي لذلك - عند سوسير - غير لغوية) والاختلافات الوظيفية. فإذا نحن مائلنا بين العلاقات والتعارضات التي تحدد الدوال من جهة، والمدلولات من جهة أخرى، نكون قد وصلنا إلى أشياء يمكن لنا أن نسميها الكينونات الإيجابية الثابتة، أو العلامات اللغوية، وإن كان ينبغي لنا أن نتذكر أنها كينونات تخرج من شبكة الاختلافات التي تشكل النظام اللغوي في مرحلة بعينها وتعتمد عليها.

ولكننا في حديثنا حتى الآن عن العلامات أو العناصر اللغوية، قد يبدو الأمر كما لو كنا نتكلم عن الألفاظ لا غير، وكان اللغة لا تشتمل على أكثر من المفردات، التي تنتظم وفقاً للتعارضات الصوتية (الفونولوجية) والدلالية. وبطبيعة الحال تشتمل اللغة كذلك على كثير من العلاقات ومن علامات الاختلاف النحوية، ولكننا نجد سوسير في فقرة جديرة بأن تقتبس كاملة بصر علي أن ليس هناك خلاف جوهري بين العنصر اللغوي والحقيقة النحوية؛ وأن الطبيعة العامة فيهما هي نتيجة لحقيقة أن العلامات تمثل أشياء متمايضة كل التمايز، وأن ما يشكل العلامة اللغوية (كائناً ما كان نوعها) ليس سوى وجوه الاختلاف بين العلامات.

«ومن نتائج هذا المبدأ التي تبدو - في التحليل الأخير - أقرب إلى التناقض، النتيجة التي تقول إن ما يشار إليه بصفة عامة على أنه (حقيقة نحوية) يلائم تعريفنا للعنصر اللغوي». وهذا ما يعبر عنه دائماً تعارض الألفاظ. ومن ثم ففي حالة التعارض في اللغة الألمانية بين **Nacht** «ليلة» و

**Nächte** «ليال»، يكون الاختلاف هو ما يحمل المعنى النحوى .

إن كلاً من اللفظين الحاضرين فى الحقيقة النحوية (المفرد بدون حركة الإمالة وبدون حرف الـ e، فى مواجهة الجمع الذى يظهر فيه الإمالة وحرف الـ e) هو ذاته نتيجة للتفاعل بين المتعارضات فى إطار النظام. وإذا أخذت لفظة **Nacht** أو لفظة **Nächte** منفردة لم تكن شيئاً؛ ومن ثم يكمن كل شىء فى التعارض. وبعبارة أخرى يستطيع المرء أن يعبر عن العلاقة بين **Nacht** و **Nächte** فى صيغة جبرية مثل **a/b**، حيث لا تكون أ أو ب مجرد لفظين بل يكون كل واحد منهما نتيجة لجملة من التعارضات. والنظام اللغوى هو ضرب من الجبر - إذا جاز التعبير - يشتمل على العبارات المركبة فحسب. وفى إطار التعارضات التى ينطوى عليها هذا النظام تكون مجموعة منها أدل من غيرها؛ ولكن «العنصر اللغوى» و «الواقعة النحوية» ليستا سوى اسمين مختلفين للدلالة على جوانب الظاهرة العامة نفسها؛ أى لعب التعارضات اللغوية. وهذا الذى نقوله صحيح إلى حد أننا قد نتناول مشكلة العناصر اللغوية عن طريق البدء بتناول الوقائع النحوية. فإذا نحن وقفنا أمام تعارض مثل التعارض بين **Nacht** و **Nächte** أمكننا أن نتساءل عن العناصر التى يشتمل عليها هذا التعارض؛ هل هى ماثلة فى هذين اللفظين فحسب، أو فى جملة الألفاظ الماثلة، أو فى الحرف **a** والحرف **ä**، أى فى كل صيغ المفرد وصيغ الجمع، وهكذا؟

ولم يكن العنصر اللغوى والواقعة النحوية ليكونا متماثلين إذا ما كانت العلامات اللغوية قائمة على شىء خارج نطاق أشكال الاختلاف. ولكن لما كان النظام اللغوى هو ما هو، فإن المرء من حيثما بدأ لن يجد شيئاً بسيطاً، بل سيجد دائماً وفى كل مكان ذلك التوازن المركب نفسه بين الألفاظ التى يحدد بعضها بعضاً أو يكيف بعضها بعضاً على نحو متبادل. وبعبارة

أخرى أقول إن اللغة صيغة وليست مادة. وليس في وسع المرء أن يستغرق في أعماق هذه الحقيقة؛ لأن كل الأخطاء في مصطلحاتنا وكل أساليبنا الخاطئة في تعيين جوانب اللغة، إنما تنشأ عن تسليمنا اللإرادي بأن الظواهر اللغوية يجب أن يكون لها كيان مادي. (الدروس ١٢١ - ٢٢، دروس ١٦٨ - ٦٩).

ولننظر على سبيل المثال في كلمة **took** (أخذ) الإنجليزية؛ فما العلامة الدالة على الفعل الماضي هنا؟ من الواضح أنها ليست شيئاً متحققاً في الكلمة نفسها ولكنها عنصر تعالقي؛ فالتعارض بين **take** (يأخذ) و **took** (أخذ) يحمل وجه الاختلاف بين المضارع والماضي، كما أن التعارض بين **foot** (قدم) و **feet** (أقدام) يحمل وجه الاختلاف بينهما على مستوى العدد. ودون كلمة **feet** يمكن التسليم بأن كلمة **foot** لن تكون محددة، شأنها شأن كلمة **sheep** (فأرن: رأيت الغنم\*) (في الحقل)، وهكذا تصور الوقائع النحوية الطبيعة التعالقية الصرف للعلامة، وتؤكد مفهوم سوسير الأساسي للطبيعة المتماثلة بصفة جوهرية لكل الوقائع التزامنية، (الدروس ١٣٤، دروس ١٨٧).

من هنا فإن عالم اللغة يهتم في دراسته للغة ما بالعلاقات؛ علاقات التماثل وعلاقات الاختلاف. ويذهب سوسير إلى أن المرء يستكشف عندئذ نمطين رئيسيين من العلاقة؛ فمن جهة هناك تلك العلاقات التي ناقشناها حتى الآن، أي علاقات التعارض التي تنتج ألفاظاً تمايزاً وتبادل المكان (b بوصفها معارضة لـ p، و foot بوصفها معارضة لـ feet)؛ ومن جهة أخرى هناك العلاقات القائمة بين العناصر التي تترابط لكي تشكل سياقات. وفي السياق اللغوي لا تعتمد قيمة اللفظ على التعارض فحسب بينه وبين غيره من الألفاظ، التي ربما كانت قد تم اختيارها بدلاً منه، بل تعتمد كذلك على علاقاته مع

(\*) حيث يحتمل أن تكون كلمة **sheep** (الغنم) إشارة إلى الحروف أو الكيش أو النعجة. (المترجم).

الألفاظ التي سبقته في السياق والألفاظ التي جاءت تالية له. والنوع الأول من هذه العلاقات، التي يسميها موسير العلاقات الترابطية، هو ما يسمى الآن بصفة عامة العلاقات الاستبدالية paradigmatic. أما النوع الثاني من هذه العلاقات فيسمى العلاقات السياقية syntagmatic. والعلاقات السياقية من شأنها أن تحدد الإمكانيات النظامية، أي العلاقات بين العناصر، التي يمكن أن تنتظم في سياق. أما العلاقات الاستبدالية فتتمثل في التعارضات القائمة بين العناصر التي يمكن أن يحل الواحد منها محل الآخر.

هذه العلاقات تتمثل في مستويات مختلفة من التحليل اللغوي. ومن ثم فإن الصوتم (phoneme) /p/ في اللغة الإنجليزية يتحدد عن طريق تعارضه مع الصوتمات الأخرى التي يمكن أن تحل محله في سياقات مثل / et - (قارن بـ bet و let و met و net و set) وعن طريق علاقاته التأليفية مع صوتمات أخرى على السواء (فهو قد يسبق أى حرف لين أو يأتي تاليا له، كما أنه عند وروده في مقطع يكون الحرفان الصامتان /l/ و /r/ هما الساكنان الوحيدان اللذان يمكن أن يأتيا تاليين له، ويكون الحرف الصامت /s/ هو الحرف الوحيد الذي يمكن أن يسبقه).

ونحن نجد كذلك على المستوى الصرفي أو مستوى بنية الكلمة علاقات سياقية وتبادلية على السواء. فالاسم يحدد جزئيا عن طريق التأليفات التي يمكن أن يدخل فيها، مضافا إليه السوابق prefixes واللواحق suffixes. ومن ثم فإننا نجد هذه الكلمات: **unbefriended** و **befriend** و **unfriendly** و **friendliness** و **friendly** و **friendless** و **friendship** و **unfriendliness**، ولكننا لا نجد **disfriend** أو **friendier** أو **friendation** أو **subfriend** أو **overfriend** أو **defriendize**. وتمثل الإمكانيات التأليفية العلاقات السياقية؛ أما العلاقات التبادلية فتتمثل في التعارض بين صوتم بعينه والصوتمات التي يمكن أن تحل محله في محيط بعينه. ومن ثم يكون التعارض التبادلي بين **ly** و **less** و **ship** من حيث إنها جميعا قابلة لأن تأتي بعد كلمة **friend**، كما أن استبدال واحدة

منها بأخرى يحدث تغيراً في المعنى . وبالمثل تدخل كلمة Friend في علاقات تبادلية مع كلمات lecture و member و dictator و partner و professor وهكذا، من حيث إن هذه الكلمات جميعاً تتعارض الواحدة منها مع الأخرى في محيط اللاحقة ship- .

فإذا نحن انتقلنا إلى مستوى تركيب الجملة بالمعنى الصحيح، كان في وسعنا أن نستمر في تحديد هذه الأنماط نفسها من العلاقة . فالعلاقات السياقية التي تحدد عنصراً تكوينياً مثل : أدخل الرعب في قلب he frightend، تسمح لهذا العنصر بالانتلوه إلا أنماط بعينها من العناصر التكوينية، مثل : جورج، أو الرجل الواقف في الزاوية، أو واحد وثلاثين من الفئران الحقلية، إلخ، ولكنها لا تسمح بعناصر مثل : الحجر، أو الإخلاص، أو لون الأرجوان أو في، إلخ . ومعرفتنا بالعلاقات السياقية هي التي تمكننا من أن نحدد للعنصر التكويني أدخل الرعب في قلب مجموعة من المفردات الاستبدالية التي يمكن أن تأتي تالية له . وهذه المفردات تقف الواحدة منها موقف التعارض التبادلي من غيرها من المفردات؛ واختيار مفردة منها هو إنتاج للمعنى عن طريق استبعاد المفردات الأخرى .

ويذهب سوسير إلى أن النظام اللغوي في جملته يمكن إيجازه وشرحه في إطار نظرية العلاقات السياقية والتبادلية، وأن كل الوقائع التزامنية بهذا المعنى تتماثل تماثلاً جوهرياً . وربما كان هذا هو أوضح تأكيد لما يمكن أن يسمى النظرة البنوية إلى اللغة . ولا يعني هذا في بساطة أن اللغة نظام من العناصر التي تحدد تحديداً كاملاً عن طريق علاقاتها الواحد منها مع غيره من العناصر في إطار النظام، وإن كان الأمر كذلك، بل يعني أن النظام اللغوي يشتمل على مستويات مختلفة من البنية؛ وأن المرء في وسعه أن يحدد في كل مستوى العناصر التي يتعارض بعضها مع بعضها، والتي تتنظم مع العناصر الأخرى لتشكيل صيغ من مستوى أعلى؛ وتظل مبادئ البنية في كل مستوى هي المبادئ نفسها بصفة أساسية .

وفي وسعنا أن نلخص هذه النظرة ونصورها بقولنا إنه لما كانت اللغة صيغة وليست مادة، فإن عناصرها لا تنطوي إلا على خصائص تتسم بالتعارض وتتعلق بالتأليف؛ وإن

المراء ليحدد في كل مستوى من مستويات البنية وحدات لغة ما أو عناصرها عن طريق قدرتها على تمييز وحدات المستوى الواقع فوقها مباشرة. إننا نحدد السمات الصوتية (الفونولوجية) الفارقة بوصفها السمات التعالقية التي تميز الصوتيات، فالحرف /b/ بالنسبة إلى الحرف /p/، والحرف /d/ بالنسبة إلى الحرف /t/، هما كما يكون الصائت (المجهور) بالنسبة إلى الصامت. ومن ثم فإن الصائت في مقابل الصامت يعد سمة فارقة دنيا. وهذه الصوتيات في دورها قابلة للتحديد، لأن التعارضات بينها لها القدرة على تمييز المورفيمات؛ فنحن نعرف أن الحرف /b/ والحرف /p/ لابد أن يكونا عنصرين لغويين لأنهما يتعارضان لكي يميزا بين كلمة **bet** وكلمة **pet**. وينبغي لنا أن نعد كلمة **bet** وكلمة **pet** وحدتين صرفيتين؛ لأن التعارض بينهما هو ما يميز - على سبيل المثال - بين **betting** (المراهنة) و **petting** (التدليل)، أو بين **bets** (الرهانات) و **pets** (صنوف الحيوان المدللة). وأخيرا فإن هذه المفردات، التي يمكن لنا أن نسميها - في بساطة - كلمات، إنما تحددها حقيقة أنها تؤدي أدوارا في وحدات من مستوى أعلى في العبارات والجمل.

ونحن إذ نؤكد بهذا الاعتماد المتبادل بين مختلف المستويات اللغوية، إنما نوضح مرة أخرى كيف أن علم اللغة لا يعرف شيئا يسلم به سلفا. وليس هذا فحسب؛ فنحن نذهب إلى أن المراء لا يستطيع ابتداء أن يحدد العناصر أو الوحدات الخاصة بمستوى ما ثم يستنبط الطريقة التي تنتظم بها لتشكيل وحدات المستوى التالي؛ وذلك لأن العناصر التي يحاول المراء أن يبدأ بها إنما تحددها العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية على السواء. والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نحدد السابقة re بوصفها عنصرا صرفيا في اللغة الإنجليزية هي أن نسأل لا عما إذا كانت تتعارض مع عناصر أخرى، ولكن عما إذا كانت تدخل - عندما تنتظم مع عناصر أخرى لتشكيل وحدة من مستوى أعلى - في تعارضات تميز هذا المستوى الأعلى من التأليف وتحدده. ونحن نعرف أن السابقة re- تتعارض من الناحية التبادلية مع السوابق **un-** و **out-** و **over-**؛ لأن **redo** تتعارض مع

redo، و outdo، و overdo كما أننا نعرف أن do عنصر مورفيمي منفصل؛ لأن redo تتعارض مع rebuild و reuse و reconnect. لنقل إنها ليست سوى تعارضات بين الكلمات التي تعيننا على تحديد مكونات الألفاظ في المستوى الأدنى، أي المورفيمات. ولا بد لنا أن نستنبط في الوقت نفسه العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية. وهذا المبدأ البنيوي الأساسي، الذي يقرر أن العناصر تتحدد عن طريق تعارضاتها مع العناصر الأخرى وعن طريق قابليتها للانتظام لكي تشكل عناصر مستوى أعلى - هذا المبدأ يعمل في كل مستويات اللغة.

### اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية:

في شرحي لهذه الجوانب التقنية في نظرية سوسير في اللغة لم أؤكد على نحو كاف مبدأ عول عليه سوسير كثيرا، إلا وهو أننا عندما نحلل لغة ما إنما نحلل حقائق اجتماعية؛ تتناول الاستخدام الاجتماعي لعناصر مادية. وكما قلت من قبل، يمكن للغة ما أن تتحقق في عناصر اجتماعية متنوعة، دون أن يصيبها تغيير فيما يتعلق بطبيعتها الأساسية بوصفها نظاما من العلاقات. والمهم، بل كل ما له صلة بالموضوع، هو وجوه الاختلاف والعلاقات التي منحها المجتمع المعنى. والسؤال الذي يطرحه المحلل دائما يتعلق بوجوه الاختلاف التي يجد فيها جمهور المتكلمين المعنى. وربما كان من الصعب في الغالب أن يعزو المرء صيغة محددة إلى تلك الأشياء التي تؤدي وظيفتها بوصفها علامات؛ ولكن إذا كان اختلاف ما يحمل المعنى لدى أعضاء ثقافة ما، كان معنى هذا عندئذ أن هناك علامة - مهما تكن مجردة - ينبغي تحليلها. وهكذا تختلف جملة جون يحب ماري في اللغة الإنجليزية من حيث المعنى عن جملة ماري تحب جون؛ ولهذا يشكل نظام الكلمات علامة، أي واقعة اجتماعية، في حين أن بعض الاختلافات المادية الملموسة في الطريقة التي ينطق بها متكلمان جملة جون يحب ماري قد لا تحمل أي معنى، وتكون - من ثم - وقائع مادية صرفا، وليست وقائع اجتماعية.

فى وسعنا - إذن - أن نرى أن علم اللغة لا يدرس مجموعات ضخمة من السياقات الصوتية، بل يدرس نظاما من الأعراف الاجتماعية. وإن المرء ليحاول أن يحدد عناصر التأليف وقواعده التى تشكل ذلك النظام، والتى تجعل الاتصال اللغوى بين أفراد المجتمع ممكنا. ومن فضائل نظرية سوسير فى اللغة أنها وضعت الأعراف والوقائع الاجتماعية فى قلب البحث اللغوى عن طريق تأكيدها لمشكلة العلامة. فما علامات هذا النظام اللغوى؟ وعلى أى شىء تعتمد ما هيتها بوصفها علامات؟ وإذ طرح سوسير هذه الأسئلة البسيطة، وبين أن ليس هناك شىء يمكن التسليم به على أنه عنصر لغوى، راح يؤكد على الدوام أهمية تبنى المنظور المنهجى الصحيح والنظر إلى اللغة بوصفها نظاما من القيم التى أقرها المجتمع، لا بوصفها مجموعة من العناصر المحددة ماديا. ولكى ينهى المرء هذه المناقشة يمكنه أن يقتبس فقرتين كتبهما فى الواقع سوسير:

لنقل إن القانون الأساسى للغة هو أنه لا يمكن لشىء قط أن يستقر فى اللفظة المفردة. وهذا هو النتيجة المباشرة لحقيقة أن العلامات اللغوية لا ترتبط بالأشياء التى تدل عليها، وأن الحرف *a* لذلك لا يستطيع أن يدل على أى شىء دون معاونة من الحرف *b*، والعكس صحيح؛ أو لنقل بعبارة أخرى إن كلا من الحرفين لا تكون له قيمة إلا على أساس وجوه الاختلاف بينه وبين الحرف الآخر، أو أن أيا منهما لا تكون له قيمة فى أى مكون من مكوناته إلا خلال هذه الشبكة نفسها من وجوه الاختلاف السلبية على الدوام.

ولما كانت اللغة لا تشتمل على مقوم مادى، بل يقتصر الأمر فيها على الحركة المفردة أو المركبة للقوى العضوية والنفسية والعقلية لدى الإنسان؛ ولما كان جهاز مصطلحاتنا فى جملته، وكانت كل الطرق التى نتحدث بها عنه، قد شكلتها دعوانا اللا إرادية بأن هناك مقوما ماديا فى اللغة، بغض النظر عن كل وجوه التفرقة التى نصل إليها، فإن المرء لا يسهه أن يتحاشى

- قبل أى شىء آخر - إدراك أن المهمة البالغة الجوهرية للنظرية اللغوية ستكون تحرير الوضع الخاص بما نقوم به من تفرقات أساسية. وليس فى وسعى أن أمنح أى شخص الحق فى إقامة نظرية فى الوقت الذى يتحاشى فيه مهمة التعريف، وإن بدا هذا الإجراء المريح قاصرا عن الوفاء بحاجة طلاب اللغة<sup>(١)</sup>.

إن ما فى نظرية سوسير من قوى موجهة يتمثل فى تشجيع حالة الاستياء وتنشيط التفكير فى الأمور الجوهرية، وفى تأكيد الطبيعة التعالقية للظواهر اللغوية. وفى وسعنا الآن أن ننظر فى الدلالة الأوسع لعمله؛ فى علاقة هذا العمل بالتفكير السابق والتفكير اللاحق فى اللغة، وبالعامل فى المجالات المعرفية الأخرى.

(1) "Notes inédites de F. de Saussure", Cahiers Ferdinand de Saussure 12 (1954), 63 and 55 - 56.